المقتطف

الجزء الرابع من المجلد التاسع والتسعين

١ نوفمبر سنة ١٩٤١ — ١٢ شوال سنة ١٣٦٠

حصاد الصيف

١ — ما يكنّه المستقبل للانسان

يلوح لعلماء طبقات الأرض ، ان موارد الأرض الطبيعية تكفي لمعيشة الناس جميعاً معيشة رخيّة على سطح الأرض مدى الف سنة مقبلة . فاذا يكنّه المستقبل للبشر ؟ إن أسلاف الانسان الذين يمتون اليه بصلة القربى عاشوا على الأرض من ثلاثمائة الى أربعمائة الف سنة وأما النوع الانساني المعروف باسم « هوموسابينز » فليس وراءه الا خمسون الف سنة من الحياة . وفي تاريخ الاحياء على سطح الأرض دول من النبات والحيوان نهضت من أصل وضيع الى منزلة التفوق والسلطان واحتفظت بمنزلتها مدى قصيراً من الزمان ، بالقياس الى الزمن الجيولوجي ، ثم دالت وانقرضت

فالتطور لا يضمن التقدم ولكنهُ يضمن التحول والتغير . وقد يكون التحول تقدماً أو تأخراً وذلك يختلف باختلاف احوال الزمان والمكان وحيوية الأفراد . والانواع الحيوانية التي تمكنت في غابر الزمان من الاحتفاظ بكيانها مدى مليونين او ثلاثة ملايين من السنين قليلة . وكان معظمها من الأنواع البسيطة التركيب . وكان كثير منها يقطن البحر حيث أحوال الحياة مستقرة مدى أزمان طويلة لا تنالها يد التقلب والتغير

أما ذلك القسم من الأحياء الذي ينتمي اليه الانسان فلسنا نجد بين انواعه نوعاً واحداً عمّر هذا التعمير . واذا استثنينا احوالاً خاصة من العزلة الجغرافية فليس ثمة نوع استمر

اكثر من مليونين او ثلاثة ملايين من السنين . ومهما تكن الدرجة العالية التي بلغتها هذه الاحياء من النجاح في ملاءمتها محيطها، تناسلاً وانتشاراً في مناكب الأرض فانها لم تلبث حتى انقرضت بعد حياة قصيرة بالقياس الى الزمن الجولوجي . ولعلّ معدل حياة الأنواع في هذا القسم من الاحياء لا يزيد على خمسمائة الف سنة

فاذا كان نصيب الجنس البشري من الحياة هو المعدّل فأمام البشر نحو خمسمائة الف سنة من الحياة قبل انقراضهم او تحولهم الى نوع ارقى بالملاءمة والتحوّل . ولكن هل يجب ان ينطبق المعدل عليهم ؟ هل على البشر ان يخرجوا من ساحة الحياة من الباب الذي خرج منه الديناصور ؟

حاولت قوة الحياة في معظم الحيوانات ضمان البقاء لهذه الحيوانات بالتخصص في الملاءمة بين تركيبها وطبائعها وعاداتها من ناحية وبين المحيط الخاص الذي تعيش فيه من ناحية أخرى . أما الانسان فتخصص في الملاءمة بين تركيبه وطبائعه من ناحية وبين أنواع شتى من أحوال البيئة الطبيعية والاجتماعية . فليس ثمة حيوان فقري آخر يستطيع ان يعيش كما يعيش الانسان في المناطق المتجمدة الجنوبية (حول القطب الجنوبي) او في ادغال البرازيل ، تحت سطح الماء أو في أطباق الهواء العليا

ثم ان الانسان في مقدمة الأحياء من حيث قدرته على تحويل البيئة وفقاً له . فهو أبرع من القندس والنمل في ذلك . يذبح البطائح والآجام ويروي الصحاري ، ويحفر انفاقاً في الجبال ويبني جسوراً لعبور الانهر ويشق ترعاً ويكيف الهواء الذي يتنفسه في البيت والمكتب والمعمل . والواقع ان هذه الملاءمة لأحوال البيئة ، تتحقق بتغيير عناصر البيئة على الاكثر ، لا بتحويل في أعضاء الجسم او وظائفها الاساسية . فعند ما نصعد مع المانجور ستيفنز الى طبقة الطحارير (Stratosphere) او نغوص مع بيب خمسمائة قامة تحت سطح البحر قرب جزائر برمودا ، او نعيش مع الاميرال برد على الجد طوال الليل القطبي الجنوبي في « اميركا الصغيرة » ، فنحن نأخذ معنا نموذجاً من الأحوال المألوفة على سطح البحر . فهو بيئتنا المعتادة في حال ، كانت لولاهُ لا تطاق

ومع ان علمنا بأحوال البيئة في العصور الغابرة لا يزال علماً قاصراً ، فليس هناك ريب في أن الحيوانات التي ارتفعت ثم دالت دولتها ، انما انقرضت بفعل تغيير ما او أكثر في بيئتها ، وان وجوه التغيير هذه جاءت فجأة على الغالب فتعذر على هذه الحيوانات التمرز بالملائمة اللازمة لها قبل فوات الأوان . أما الانسان فيجب ألاّ يخشى شيئاً من هذه الناحية

ومن الواضح أن غزو الانسان محيطهُ ، نشأ عن براعته في استعمال الاشياء . فاذا انقطع

سبيل القطن والكتان والصوف والنحم والحديد والنفط والنحاس والرصاص والتصدير من الارض اليه ، غدا ضيقاً حقيراً . فقدرته على استعمال بعض موارد بيئة ما كفيلة من التحرر من قيود تلك البيئة . فهل هذه الموارد كافية لتجهيزه بما يحتاج اليه، مدى غير محدود من الزمن للمحافظة على لون البيئة التي ألفها ؟

***

في الطبيعة مصدران أصيلان لما يحتاج اليه الانسان من مواد وطاقة ، في سبيل تقويم الحياة التي ينشدها . هناك في الناحية الواحدة الزرعة والشلال ، وفي الناحية الأخرى النجم والحجر . فالأشياء التي تنمو في الحقل والحرج ، والطاقة التي تولد من الماء المتحدر ، تدخل في باب الايراد السنوي من موازنته الارضية . أما وقد أتاح لنا البحث العلمي معين النتروجين الذي لا ينضب في الهواء ، لاستعماله في تركيب الاسمدة ، فموارد الحياة النباتية قابلة للتجديد . اننا نستعملها ولكننا لا نخشى نفادها . ويقابل هذا ان الموارد المعدنية ، التي مردّها الى المناجم والمحاجر ، لا تتجدّد فهي من الموازنة في باب رأس المال المدّخر

وقد تكونت وتجمعت مواد النفط والفحم والنحاس والحديد والرصاص والفناديوم وغيرها مما هو من قبيلها، بفعل الطبيعة الارضية على مرّ العصور . وهي مواد لا غنى للحضارة الحديثة عنها، وبفعل التقدم العلمي والصناعي في استعمالها قد يستنفدها الانسان في مئات من السنين او في بضعة الوف على الاكثر . وهذه الحقيقة التي لا يستطاع جحدها ، هي السبب الأصيل في الضائقات الاقتصادية والحروب ونزاع الطبقات

ولدى العلماء تقدير على جانب غير يسير من الدقة ، لما تحتويه الارض من موارد لا تتجدّد موادّها . فالمخزون في الارض من معظم هذه المواد التي لا تتجدّد ، يفوق اضعاف اضعاف ما يستهلك كل سنة . والمخزون من البقية المعرّضة للنفاد ، كالنفط ، عندنا بديل منه في مقادير تكفي القرن او ثلاثة آلاف من السنين (النفط المولّد بالكيمياء من الفحم) . فالبشر غير معرّضين حالاً لنفاد الخامات الاساسية ، اذا نظرنا الى الارض نظرة شاملة ، وعلى شريطة ألاّ تزيد المقادير التي نستنفدها منها زيادة كبيرة سريعة

ولكن هل من المحتمل ان يزداد الطلب على المواد غير قابلة التجديد ، زيادة كبيرة في المستقبل ، فتفضي الى نفادها سريعاً ؟

اذا تذكرنا ان «سكان هذا الكوكب السيار» زادوا في خلال القرون الثلاثة الاخيرة خمسة اضعاف ، فهناك ما يخشى من هذه الناحية . ولكن دراسة الاتجاهات العامة في زيادة السكان تسفر عن القول بأنه لا يحتمل ان يزيد عددهم في خلال بضعة القرون المقبلة على وجه يشبه

وزيادتها في بضعة القرون الحالية . واذا لم يطرأ تغير على اتجاهات زيادة السكان في الولايات المتحدة فعددهم يبلغ اقصاه حوالي سنة ١٩٥٠ اذ يصبح ١٥٠ مليوناً . ولا ينتظر ان يزيد عددهم بعد ذلك الا اذا كثر المهاجرون الى الولايات المتحدة من بلدان اخرى

وهناك ما يبعث على القول بأن عدد الشعوب البيض يبلغ اقصاه في الثلث الاخير من القرن العشرين ، وبأن عدد سكان الارض قاطبة يبلغ اقصاه في اواخر القرن الحادي والعشرين . ومع ان عدد افراد الاسرة البشرية تضاعف منذ سنة ١٨٦٠ فلا يحتمل ان يبلغ عددهم ضعفي عددهم الآن وهو اثنا مليون

فزيادة الطلب على المواد غير القابلة للتجديد ، لن يشتدّ نتيجة لزيادة السكان في المستقبل القريب . وما تبيحه لنا الارض من مواردها الطبيعية اعظم كثيراً مما نظن

ولكن هناك سبب آخر يحملنا على القول بان ما يستنفد الآن من المواد غير القابلة للتجددُ لا يصحّ ان يتخذ مقياساً لمدى اعتمادنا على موارد الارض . فالطلب على السيارات والتلفونات وأجهزة الالتقاط اللاسلكي والطائرات وغيرها ليس موزّعاً توزيعاً متساوياً على شعوب الارض وليس هناك الاّ فئة يسيرة من البشر تستعمل هذه الاجهزة استعمالاً واسع النطاق . واما سائر الشعوب فلا تستعملها مطلقاً او لا تستعملها إلاّ استعمالاً يسيراً جداً . ولا ريب في ان نطاق استعمالها إيّاها سيزداد إزدياداً مطرداً . واذا لم يرتقِ البشر الى حالة افعمجية فطلب البشر على المواد غير قابلة التجدّد سيزداد ضعفين او ثلاثة اضعاف ، ولو لم يزد عددهم إلاّ بقدر

***

من نحو مائة سنة كان ثمانون في المائة من الاشياء التي يطلبها الناس ويستعملونها تصنع من مواد ينتجها الحقل . وكان معظم الطاقة التي ينفقها الناس في قضاء حاجاتهم مردُّها الى عضل الانسان والماء المنحدر . اما الآن فثلاثون في المائة لا غير من هذه الاشياء يرجع الى ماينمو في الحقل . ومعظم الطاقة المستنفدة يرجع الى النفط والفحم . وقد كان اتجاه البشر بوجهٍ عام خلال هذا القرن المنصرم الى الإقلال من الاعتماد على الايراد السنوي ، والاكثار من الاعتماد على رأس المال المدّخر

ولكننا الآن على عتبة انقلاب في هذا الاتجاه . فعجلات تحريك السيارات تصنع من فول الصويا ، ومضارب « البيان » من جبن الكوخ ، وعشرات بل مئات من الاشياء والادوات تصنع من العجائن المستخرجة من قوالح الذرة والبرسيم والوف من الاشياء التي تحلّ محلّ ما يقابلها من الادوات المعدنية ، تصنع الآن من نتاج الحقل . والطاقة تنقل كهربيةً

مدى مئات الاميال بعد توليدها من الماء المنحدر. اي ان الانسان بدأ يعدل عن استنفاد اية مواد غير قابلة التجدد ، الى استعمال مواد تتجدد كل سنة في الحقل سواء أكانت أم حيوانية . إنه عدل عن تبذير ماله المدخر الى استعمال دخله السنوي !

ولا بدّ ان يكون لهذا التحوّل تأثير عظيم في الخطط السياسية والاحوال الاجتماعية . انه يقلل الضغط في سبيل السيطرة سيطرة سياسية على مناجم الفلزات وحقول الفحم وآبار النفط ، فتزول بذلك طائفة كبيرة قوية من أسباب النزاع الدولي . ان العلم بدأ يحيي فينا الأمل بأن في وسع الانسان ان « يطبع سيوفه سككاً ورماحه مناجل »

هل تكفي الأرض الخصبة لانتاج كل ما يحتاج اليه الناس من طعام وكل ما تحتاج اليه الصناعة الحديثة لصنع هذه الأشياء الجديدة من البرسيم والذرة وفول الصويا وما أشبه ؟ والجواب بالايجاب ، لا مواربة فيه ولا غموض . ان الباحث العالم برنال Bernal يقول ان زراعة اثني مليون فدان وفقاً للاساليب الزراعية العلمية الحديثة المتبعة في بريطانيا الآن ، تكفي لانتاج طعام يكفي جميع سكان الأرض . وهذه المساحة هي نصف المساحة المزروعة الآن ولا تزيد عن ١٢ في المائة عن مساحة سطح اليابسة على الأرض . ولم يدخل برنال في حسابه هذا ما يحتمل في المستقبل من زيادة غلة الفدان باتقان أساليب التسميد والبذر والجني وغيرها . وبتحسين انواع النباتات المزروعة بالاعتماد على وسائل تحسين النسل بالانتخاب والمزاوجة . فليس ثمة باعث يبعث الناس على الخوف . إن زيادة سكان الأرض لن تفضي الى قلة المتاح من موارد الطعام

ولكن هذه الأقوال التي تبعث على التفاؤل مبنية على احصاءات عالمية ولا تصدق الاّ على الأرض اجمالاً ، أي انها لا تصدق اذا طبقت على اقتصاد دولة ما بعينها . فليس ثمة دولة من الدول الحديثة تشمل داخل حدودها طائفة من التركيبات الجولوجية تكفيها للفوز بجميع انواع الركاز المعدني اللازمة في الأعمال الصناعية الحديثة . وليس بينها دولة تشمل أنواعاً مختلفة من الأقليم تمكنها من ان تنتج في مزارعها وتتناول من حراجها كل ما تحتاج اليه من المحاصيل النباتية . فالدول الآن تعتمد بعضها على بعض ، ومن المحتمل ان تبقى كذلك مدة طويلة الى المستقبل . والمسألة الكبرى التي يواجهها القرن العشرون هي هذه : — كيف نستطيع ان ننظم اثني مليون او ثلاثة آلاف مليون نسمة تنظيماً يربطها بعضها ببعض ويمكنها من توزيع موارد الارض توزيعاً عادلاً ، وهي كما قدمنا موارد كافية ولكنها غير موزعة توزيعاً متساوياً . فواضح ان ما يكتنف المستقبل للانسان مرتبط بمعرفة الجواب الصحيح عن هذا السؤال وتطبيقه

(عن الاستاذ ماينر استاذ الجولوجية بجامعة هارفرد)

٢ — زيت صلب كالفولاذ

أثبتت مباحث الطبيعة الحديثة ان لا قبل للعلم بفهم المادة فهماً صحيحاً إلاّ اذا عرف رجاله تأثير الضغط العالي في ذراتها وجزيئاتها . ذلك بأن ٩٩٫٨ في المائة من مادة الأرض و٩٩٫٧ و ٩٩ في المائة من مادة الشمس خاضعة لضغط يزيد كثيراً على الف ضغط جوي على البوصة المربعة . ولذلك قال الأستاذ ولبولد ان تطبيق مباحث الضغط العالي قد تنطوي على مغزى جديد وهو ان للطبيعة الكونية والكيمياء الكونية نواميس وقواعد قلما نعلم منها شيئاً الآن . ففي عالي الطبيعة الكونية والكيمياء الكونية ، تفقد النواميس الطبيعية والكيميائية التي استخرجها العلماء على سطح الارض كل معنى . كانوا يظنون انهم يعرفون كيف تتصرف الغازات اذا عرضت للضغط العالي ولكن عند ما استطاعوا تعريضها للضغط العالي وجدوا النتائج مخلفة الظن . وكلما ارتفع الضغط اتسع الفرق بين النظر والحقيقة

إن الحياة على سطح الأرض تحدث بين حدود ضيقة من الحرارة والضغط . نعم ان بعض الأحياء ذات الخلية الواحدة تستطيع ان تتحمل درجات عالية من الضغط والحرارة . ولكن هذا نادرٌ . وقد كان العلماء يجهلون الى عهد قريب تأثير الضغط العالي في المادة والأحياء لأنهُ كان من المتعذر صنع أجهزة تمكّن العلماء من توليد ضغط عالٍ يبلغ ٣٠ الف ضغط جوي . ونحن نعلم ان ضغط الهواء على سطح البحر يبلغ نحو ١٥ رطلاً على البوصة المربعة . فيرفع عموداً من الزئبق ثلاثين بوصة في أنبوب مفرغ . وهذا المقدار من الضغط يستعمل وحدة للقياس فيقال « ضغط جوّي » او « جوّ » و « الف ضغط جوّي » أو « ضغط الف جوّ »

فكيف يؤثر الضغط العالي في خواص المادة ؟

هناك درجات من الحرارة تذوب عند بلوغها ضروب المادة المختلفة او تتبخر . والضغط العالي يؤثر في هذه الدرجة فيغيرها

ففي أواخر القرن التاسع عشر قال جيمز طمسن شقيق لورد كلفن انهُ اذا كان هناك مادة تتمدّد عند الانصهار او الذوبان فدرجة الانصهار او الذوبان يجب ان ترتفع بازدياد الضغط . اما اذا كانت من المواد القليلة التي تتقلص عند الذوبان او الانصهار — كالماء أو البزموت أو الغاليوم — فدرجة الذوبان او الانصهار يجب أن تنخفض بازدياد الضغط . وجرب لورد كلفن تجربة استوقفت الانظار لتأييد رأي شقيقه . أما اعترضتهُ حينئذٍ صعوبة كبيرة وهي ان قلّة الضغط المتاح له لم يمكنهُ من تغيير درجة انصهار المواد التي جرّب بها تجربته ، او درجة ذوبانها ، الاّ تغييراً يسيراً لا يزيد عن جزء من الدرجة . اما الآن وقد غدا في وسع

العلماء ان يعرضوا المواد لضغط أعلى جداً من الضغط الذي كان في متناول كثيرين في مكنتهم ان يغيروا درجة الانصهار او الذوبان مئات من الدرجات المئوية. حتى ليستطيعوا ان يجعلوا الزئبق ان يتجمد على درجة من الحرارة هي درجة الماء الغالي وذلك بتعريضه لضغط ٢٨ الف جو

اما حالة الماء عند تعريضه لضغط عال فتستوقف النظر خاصة . ما يكون تأثير الضغط فيه اذا مضينا في زيادته لا حدّ لها ؟ أتنخفض درجة الذوبان انخفاضاً لا حدّ له الى ان يصير ثلجاً من نوع آخر. وهذا الموضوع كان محل نظر وعناية من العلماء بعد اذاعة رأي طمسن وتجربة شقيقه لورد كلڤن . الاّ ان زكن علماء الطبيعة لم يكن كافياً حينئذٍ ليمكنهم من النفوذ الى الحقيقة. وكان عالمٌ يدعى تامان Tammann أول من استعمل ضغطاً قدره ثلاثة آلاف جو في دراسة موضوعات من هذا القبيل فوجد شيئاً يثير الدهشة . ذلك انهُ وجد ان درجة ذوبان الجد تواني الهبوط تحت الضغط المتزايد حتى يبلغ الضغط ٢٢٠٠ جو فتصير ٢٢ درجة مئوية تحت الصفر وهي درجة أبرد قليلاً من برد مزيج الجد والملح المستعمل عند عمل المثلجات (دندورمة)

ولكن اذا عرّض الجد لضغط أكبر من ٢٢٠٠ جوٍ وحرارة دون ٢٢ تحت الصفر تهاوت بلوراته ونقص حجمهُ ٢٠ في المائة وانتظمت جزيئاته في بلورات تختلف عن بلوراته المألوفة. وهذا التحول في نظام بلوراته قد ثبت ثبوتاً لا ريب فيه بواسطة الاشعة السينية التي أصبحت وسيلة فعّالة لدراسة بناء المادة البلوري . ولا يخو ان الجد اقل كثافة من الماء ولذلك فهو يطفو عليهِ . ولكن اذا عرض الجد لضغط عال كما قدمنا فان مايصيبهُ من نقص الحجم وتحول في تركيبه البلوري يجعله أكثف من الماء السائل فيغرق في الماء . فاذا صح قول جيمز طمسن فهذا الجد الجديد — الذي يزداد حجمه عند الذوبان وهو على نقيض الجد العادي الذي ينقص حجمه عند الذوبان — يجب ان ترتفع درجة ذوبانه اذا عرض لضغط عال بدلاً من ان تنقص درجة ذوبانه كالجد العادي . والتجربة تؤيد هذا القول. الاّ ان الجد الجديد يتحول جداً من ضرب آخر اذا فاق الضغط الواقع عليه ٣٥٠٠ جوّ . وقد وجد العلماء أنهم يستطيعون أن يصنعوا سبعة أصناف من الجد غير الاة زيادة الضغط على كل جديد منها وآخرها ترتفع درجة ذوبانه الى ١٩٠ درجة مئوية عندما يكون معرضاً لضغط أربعين الف جو . وهي حرارة كافية على ما تعلم لصهر اللحام

فاذا صح هذا على الماء فيجب أن يصح كذلك على البزموت والغاليوم وهما عنصران ينقص حجمهما عند الانصهار كالجد العادي عند الذوبان. فهل يتحولان الى صنفين جديدين من البزموت والغاليوم بزيادة الضغط عليهما حتى يصبحا موادّ ترتفع درجة انصهارها بدلاً من أن تنخفض. أي هل يطرأ عليهما التحوّل الذي يطرأ على الماء ؟ والجواب بالايجاب ولكن هذا التحوّل

لا يتمّ الاّ بعد تعريض الزمرد لضغط قدره ٢٨ الف جو والغاليوم لضغط قدره ١٣ الف جوّ

فيلوح من هذه التجارب أن ما نراه من تمدد الماء عند تجمده ليس الاّ ظاهرة تصحّ ما زال الضغط عاديًا فقط . والعالم عند الاستاذ بردمن أن جميع المواد تتقلص عند تجلدها اذا كان الضغط على درجة وافية من الارتفاع

قلنا ان رفع درجة الضغط والمضي في رفعها تدريجاً أفضت الى صنع سبعة أصناف من الجمد وما يصحّ على الماء يصح على مواد كثيرة . فالزمرد له اربعة أصناف والغاليوم ثلاثة والكافور تسعة ولا يبعد ان تكون احد عشر صنفاً

هذا ولا بدّ من حدوث هذا التحوّل في المواد التي في قلب الارض حيث درجات الحرارة والضغط عالية جدًّا ولا بدّ ان يكون لها خواص غير الخواص التي نسندها اليها على سطح الارض وهي في حالتها المألوفة . وهذا يعني اننا لا نستطيع ان نتكهن بأحوال المادة في قلب الارض او الشمس الاّ بعد دراسة وافية للمادة وهي معرضة لدرجات عالية من الضغط والحرارة على سطح الارض وكيف تتحول

هذه التحولات في المادة وهي معرضة للضغط العالي تزول عند رفع الضغط عنها وترتد المادة الى أصلها . ولكن العلماء وجدوا مادة واحدة يحدث الضغط العالي فيها تحولاً دائماً وتلك المادة هي الفصفور الأبيض . فالفصفور الابيض مادة غير مستقرة تلتهب من ذاتها عند تعريضها للهواء ولكنها تتحول تحولاً دائماً بعد تعريضها لضغط عالٍ فتصبح سوداء بدلاً من ان تكون بيضاء ثم انها لا تلتهب وتوصل الكهربائية بدلاً من ان تقاومها

فتغيير من هذا القبيل يذكي الخيال . ذلك بأنهُ اذا استطعنا ان نغير الفصفور تغييراً دائماً ونحوّلهُ الى مادة جديدة لها خواص مناقضة لخواصها الأصلية ، أفليس في الوسع تحويل غيره من المواد بتعريضها للضغط العالي فنصنع بذلك مواد جديدة لها خواص مرغوب فيها ؟

ثم كيف يؤثر الضغط في حجم المواد ؟ الغاز على ما نعلم يعتو بسهولة للضغط فتستطيع ان تضغط ما يملأ حجرة كبيرة من الهواء في أنبوب عجلة السيارة . أما الماء فقد قلنا في مستهل الكلام انه قابل للانضغاط وان كانت كتب الطبيعة تقول انه ليس كذلك . وذلك لأن التجارب القديمة الى منتصف القرن الثامن عشر عجزت عن ضغطه بما لديها من الوسائل . ثم هناك الجوامد وهي أقل قابلية للانضغاط من الماء ولكنها تنضغط . فالحديد أقل قابلية للانضغاط من الماء فائة ضعف . ولكن اذا استعمل ضغط قدره ألوف من الاجواء أمكن ضغط السوائل والجوامد ضغطاً يسهل قياسه فالسوائل تقل حجماً تحت الضغوط العالية من ٣٠ الى ٤٠ في المائة . وكل سائل لا بدّ ان يتجمد بزيادة الضغط الذي يوقع عليهِ . وعندئذٍ يصح وهو متجمد شأنه شأن

المواد الجامدة أصلاً من حيث تأثير الضغط العالي فيها . فالجمد اذا عرض لضغط قدره ٥٠ الف جوّ كان حجمهُ ٤٠ في المائة اقل من حجم الماء الذي صنع منهُ اولاً . والغازات أقل قابلية للضغط من السوائل ولكن التفاوت بينها كبير . فعنصر الكيزيوم مثلاً وهو أشد الغازات قابلية للضغط أسهل انضغاطاً من الماء وينقص الى ٥٠ في المائة من حجمهِ الأصلي اذا عرّض لضغط ٥٠ الف جوّ

ثم ان المقاومة لسريان التيار الكهربائي تقل بارتفاع الضغط الذي تعرّض لهُ المواد حتى لقد تتحوّل المادة غير الموصلة للتيار الى مادة موصلة فالتوريوم وكبريتور الفضة ليسا موصلين جيدين في الاحوال العادية ولكنهما يصبحان موصلين جيدين تحت الضغط الشديد وإيصالهما للتيار الكهربائي ألوف الاضعاف أقوى مما كان . والفصفور ليس موصلاً للكهربية اذا كان الضغط عاديًّا ولكنهُ يصبح موصلاً اذا عرّض لضغط قدره الف جوّ . ومن المواد ما قد تشتد مقاومته للتيار بارتفاع الضغط

ومن أغرب ما يروى عن تأثير الضغط العالي خاص باختراق الماء ألواح الصلب القاسي والزجاج. فقد روى العالم بولتر في مجلة «الطبيعة النطيفة» انهُ اذا ارتفع الضغط ارتفاعاً كافياً في الوسع ان يخترق الماء سطحاً صقيلاً من الصلب ، او طبقة سماكتها بضعة ملليمترات من لوح زجاجي في بضع دقائق. وقدرة الكحول والأثير تحت الضغط على النفاذ او الاختراق أقل من قدرة الماء أما الغليسرين والزيوت فيندر ان يكون لها قدرة على هذا الضرب من الاختراق ولكن مواد تشحيم السيارات تصبح صلبة كالفولاذ اذا ضغطت ضغطاً عالياً. وأغرب من هذا انهُ اذا رفع الضغط رفعاً فجائيًّا خرج الماء الذي كان قد تخلل سطح الصلب تفتت السطح . واذا أُخذ قضيب من الزجاج وأحيط بالماء وعرض الماء لضغط كافٍ هنيهة ثم رفع الضغط فجأة فالزجاج لا يتأثر . ولكن اذا طال الضغط خمس دقائق ثم رفع فجأة فقضيب الزجاج ينقسم حينئذٍ أقراصاً زجاجية واذا زاد التعرض للضغط الى عشرين دقيقة ورفع فجأة تهاوى القضيب شظايا زجاجية صغيرة

وما تأثير الضغط العالي في الأحياء ؟

ان الأحياء البحرية تمكنت من الملاءمة بين حياتها ودرجات الضغط المختلفة في البحار. في أغوار البحار أصناف متعددة من السمك تعيش حيث يبلغ الضغط « ألف جو » . ولكن الحيوانات التي تتنفس الهواء لا تستطيع أن تعيش اذا نقص الضغط الجوي كثيراً او اذا زاد كثيراً . ومع ذلك فدرجات الضغط في قعر البحر ، وفي أعالي الهواء ، تكاد تكون

عادية بالقياس الى درجات الضغط العالي التي يستطيع العلم توليدها ، او يفرض العلم وجودها في قلب الأرض او باطن الشمس

من الأحياء ذوات الخلية الواحد ما يستطيع ان يعيش في درجة من البرد تبلغ الصفر المطلق تقريباً ، ويستطيع ان يتحمل درجة من الضغط العالي لا يكاد يتصورها العقل . فمن البكتيريا ما يستطيع ان يعيش بغير ان يصاب بأذى في أحوال يتفاوت فيها الضغط بين ثلاثة آلاف جوّ وأربعة آلاف جوّ ، ومن البكتيريا صنف لا يولد بزوراً (Spores) كالبكتيريا العنبية (ستافيلوكوك) يموت اذا بلغ الضغط ستة آلاف جوّ بينما البكتيريا التي تولد بزوراً تستطيع ان تتحمل ضغطاً يبلغ ٢٢ الف جوّ فهي قادرة ان تعيش في قعر البحر ، وتتحمل ضغط مائه العظيم حتى لو بلغ عمق البحر اثنين وعشرين ضعف ما هو في أعمق أعماقه

ومن الغريب ان سمّ الأفاعي لا يدنّس ولا يفقد صفته بتعرضه لأعظم ضغطٍ استطاع العلماء توليده حتى الآن . يقابل هذا ان باشلس الدفتيريا يموت بفعل ضغط لا يزيد على ١٣٠٠ جوّ ، ويموت باشلس الدرن بفعل ضغطٍ دون ذلك . وتموت الخلايا السرطانية ، كسائر الخلايا الحية بتعرضها لضغط يبلغ الفي جوّ . ويؤخذ من هذا ان سبب السرطان ليس بكتيريا لأن أشد البكتيريا تأثراً بالضغط يستطيع ان يتحمل ضغطاً يبلغ ٤٠٠٠ جوّ بغير ان يموت . ولا تبلغ الحيوانات المجهرية مبلغ البكتيريا في قدرتها على تحمل الضغط العالي . ولكن النقاعيات (الانفزوريا) وغيرها عرضت لضغط يتفاوت بين ٢٠٠ جوّ و ٥٠٠ جوّ بغير ان تموت . ومن بواعث العجب والحيرة ان التعرض لضغط عال يبعث على نشاط اعمال الحياة في البذر ثم يطفىء شعلتها فجأة . فتشاهد طائفة من « براغيث الماء » وقد زادت حركتها ونشط ذهابها وايابها عندما تعرض للضغط ، ثم تكف كأنها نوّمت او ترسب في قعر الاناء . فاذا رفع الضغط فجأة او خفض عادت الى الحركة على سطح الماء على مألوف عادتها

ولكن تأثير الضغط العالي لا يقتصر على الأحياء وقد سقنا في ما تقدم طرفاً من الوان تأثيره في المادة وخواصها

ولا نعلم الآن ما يكون من شأن هذه المباحث الجديدة في ارتقاء علمي الكيمياء والطبيعة وتقدم تطبيقهما . ولكن مما يستوقف النظر ان نواميس الكيمياء والطبيعة تصدق على المادة عندما تكون خاضعة لضغط عادي ولا تصدق عليها عند ما تتعرض لضغط عالٍ جداً . ولا بدّ ان يكون لهذه الحقيقة أثر في آراء العلماء عن أحوال المادة في الأجرام الأخرى لأن هذه الآراء كانت قائمة الى حدٍّ ما على ان خواص المادة هناك تشبه خواصها على سطح الارض

٣ — النفط والحرب في أوربا

الحقيقتان الأساسيتان في هذا الموضوع الخطير ، هما مقدار نقص الاستهلاك الأهلي في ألمانيا وإيطاليا والبلدان المحتلة ومدى اتساع نطاق الاستهلاك الحربي . والسؤال الرئيسي بعد بحث هاتين الحقيقتين هو هذا : — كيف تُقابَل المقادير التي لا غنى عنها من النفط ومشتقاته للاستهلاكين الأهلي والحربي في أوربا النازية ، بالموارد المتاحة لها الآن ؟

زاد ما يستهلك من النفط ومشتقاته في ألمانيا ، من ثلاثة ملايين وثلث مليون طن الى سبعة ملايين وثلث مليون طن بين ١٩٣٣ — ١٩٣٨ ، وقد فرضت قيود شديدة على الاستهلاك في بدء الحرب ، فنقصت المقادير المستهلكة نقصاً كبيراً . وكان ما يستهلك عادةً في أيام السلام في النمسا وتشيكوسلوفاكيا وغرب بولونيا ودنمارك والنرويج وهولندا وبلجيكا وفرنسا المحتلة نحو ثمانية ملايين من الأطنان — وهذا بصرف النظر عن المقادير اللازمة للسفن في الحالين . ولا ريب في ان السلطات الالمانية في ألمانيا وجميع البلدان المحتلة فرضت قيوداً شديدة على استهلاك أصناف النفط ومشتقاته في تلك البلدان . فاستعمال السيارات لأغراض خاصة محظور اطلاقاً او في أغلب الأحيان . وقد عادت الدراجات الى باريس مثلاً أسلوباً ثانياً للانتقال

ولكن نقص الاستهلاك الأهلي له حدٌّ ولا سيما في بلدان صناعية يريد هتلر ان يستغلها استغلالاً صناعياً

والمفروض عند خبراء هذا الموضوع ان أقصى حدود الشدة في هذه القيود تفضي الى نقص الاستهلاك المألوف في أيام السلام ، من خمسين في المائة الى خمسة وستين في المائة . ولما كانت البلدان التي تقدم ذكرها تستهلك عادة في أيام السلام ، ما يزيد قليلاً على خمسة عشر مليوناً من الأطنان ، فالاستهلاك الأهلي فيها الآن لا يمكن ان يكون دون خمسة ملايين الى ستة ملايين من الاطنان

أما ايطاليا فكانت تحتاج في استهلاكها الأهلي في أثناء السلام الى مليوني طن ونصف مليون طن . والرأي عند الخبراء ان هذا المقدار لا يستطاع نقصه بالقيود المفروضة على الاستهلاك ، مهما تبلغ من الشدة والدقة ، اكثر من ٤٠ الى ٥٠ في المائة . أي ان ايطاليا تبقى محتاجة الى مليون طن ونصف مليون طن من النفط ومشتقاته لاستهلاكها الأهلي على الاقل . وهذا عدا ما تحتاج اليه لتموين سفنها التجارية . فمجموع ما تحتاج اليه دولتا المحور والبلدان الخاضعة لها للاستهلاك الاهلي لا غير ، يبلغ ستة ملايين ونصف مليون طن . وهذا الحساب عمل قبل احتلال البلقان . وما تستهلكه دول البلقان يجب ان يضاف الى ما تقدم

وماذا يقال في الاستهلاك الحربي؟ إن هذا الاستهلاك مرتبط بنوع القتال الدائر او الذي يحتمل ان يدور. ولكن في الوسع ضرب مثل او مثلين. فالطائرة المطاردة التي قوة محركها الف حصان تستهلك ٢٥٠ كيلو غراماً من أصفى أنواع البنزين — وهو مشتق من النفط بأساليب خاصة — في ساعة واحدة. والقاذفة التي قوة محركيها ألفا حصان تستنفد ٥٠٠ كيلو غرام في ساعة واحدة. وقد أثبتت حقائق الحرب الميكانيكية في بولونيا وفرنسا، ان فرقة متحركة تستنفد ١٨٠ طناً من الوقود السائل كل يوم. وقد استعمل الالمان في بولونيا نحو فرقة واربعة آلاف طائرة، وفي معركة فرنسا عندما بلغت ذروتها من الشدة والعنف، ١٢٠ فرقة و ٣٠٠٠ طائرة كل يوم. وهذا يقابل استهلاكاً سنوياً قدره أربعة ملايين طن في الحالة الاولى و ١٠ ملايين طن في الحالة الثانية. ولكن اذا اقتصر القتال على الحرب الجوية، كان الاستهلاك أقل كثيراً. فاذا استعملت ألف طائرة وكانت كل منها تطير ما معدله ساعتان كل يوم، بلغ مجموع ما تستهلكه في السنة نصف مليون طن من البنزين النقي. ولذلك قلنا ان الاستهلاك الحربي مرتبط بنوع القتال الدائر او الذي يحتمل ان يدور.

ويجب ان يضاف الى هذا ان ما تصاب به سكك الحديد الاوربية ولا سيما في المانيا من تلف وتعطيل قد يضطر المانيا الى توسيع نطاق النقل بالسيارات، وهذا يزيد مقدار ما يستهلك من الوقود السائل. وما أصيبت به سكك الحديد من تلف وتعطيل حتى الآن حملها على توسيع نطاق النقل البحري الساحلي في شمال اوربا وشمالها الغربي مع ما تتعرض له هذه السفن المتنقلة من أخطار الى أخطر من خطر القاذفات البريطانية

وليس ثمة ريب في ان القتال الدائر في روسيا منذ اربعة أشهر، من أعنف ما عرف في التاريخ وهو واسع النطاق يمتد الفاً وخمسمائة من الاميال او اكثر. وتشترك فيه جيوش تعد بالملايين وطائرات ودبابات ومركبات تعد بعشرات الالوف ويشمل مساحات شاسعة ومسافات طويلة. فلا ريب في ان الجيش الالماني استنفد مقادير عظيمة من النفط ومشتقاته. وقد تصعب معرفة هذه المقادير على وجه التحقيق. ولكن فريقاً من الخبراء قدّرها بخمسة ملايين من الاطنان في الاشهر الثلاثة الاولى. وهو تقدير لا نعلم مبلغهُ من الدقة، لان معرفة ما تستهلكه جيوش كبيرة قوامها مئات من الفرق وعشرات الالوف من الدبابات والسيارات المدرّعة وسيارات النقل الكبيرة والطائرات ليست بالأمر اليسير

فما هي الموارد التي تعتمد عليها المانيا في توفير ما تحتاج اليهِ من النفط ومشتقاته للاستهلاك الاهلي — وهو نحو ثمانية ملايين طن في السنة — وللاستهلاك الحربي، وهو مقدار متغير ولكنهُ بالغ الآن، ومعركة روسيا على أشدها، مبلغاً عظيماً، لا شك في ذلك

هذه الموارد ثلاثة ، أولها ما يستخرج من النفط من آبار في اوطني المانيا او البلاد الخاضعة لها ، او ما يصنع فيها بالتركيب الكيميائي مستخرجاً من الفحم . وثانيها ما يسترد من الخارج . وثالثها ما خزن قبل الحرب تأهباً لها

زاد ما يستخرج من النفط الخام من آبار في المانيا والبلدان الخاضعة لها من ٢٣٨ الف طن في سنة ١٩٣٣ الى ٧٠٠ الف طن في سنة ١٩٣٩ وقد يبلغ مليوناً الآن او اكثر قليلاً وهذا يشمل ما يستخرج في بولونيا وفرنسا . وزاد المصنوع بالتركيب الكيميائي من ١٨٠ الف طن في سنة ١٩٣٣ الى ٠٠٠ ١٧٠٠ في سنة ١٩٣٩ وقد يكون — او من المفروض ان يكون — حوالي مليونين هذه السنة . فمجموع ما يستخرج من آبار خاضعة لألمانيا — عدا رومانيا — وما يصنع بالتركيب الكيميائي ، ٠٠٠ ٧٠٠ ٢ طن في سنة ١٩٣٨ وكان مفروضاً ان يبلغ اربعة ملايين في هذه السنة على الاكثر

استعملنا لفظ «مفروض» مراداً في العبارة السابقة ، في الاشارة الى استخراج الزيت من الفحم بالاساليب الكيميائية . وسبب استعماله ان الحرب الجوية جعلت مصانع استخراج الزيت من الفحم بيوتاً من الزجاج ترشق بالحجارة أي بالقنابل . وقد جرت قيادة سلاح الطيران البريطانية على خطة منظمة أحد أغراضها تدمير هذه المصانع وكل مصنع منها هدف لا مثيل له لطيارى الغاذفات لانها تحتوي على مواد ملتهبة تشتعل فوراً وتحدث حرائق ملتهمة اذا أصابتها قنابل متفجرة او متفجرة فحرقة . ولا ريب في ان انتاج هذا النوع من الزيت في المانيا قد تأثر تأثراً كبيراً بفعل هذه الغارات . وفي الوسع ان نتصور الوقت الذي ينقص فيه هذا الضرب من الانتاج الى مقادير تقرب من الصفر . ولولا هذه الغارات الجوية لكان من المفروض ان يبلغ انتاج هذا الزيت مبلغ كذا في هذه السنة . ولكن هناك فرق شاسع بين المفروض والحقيقة الواقعة

وهذه الناحية من الحرب ، قلبت في حدودها ، مبدأ حربيًّا قديماً . إذ كان من المسلَّم به عند الخبراء العسكريين ، ان الدولة التي تحارب حرباً تكون فيها خطوط مواصلاتها خطوطاً داخلية تفوز بمزية عظيمة على خصمها لان الخطوط الداخلية أقصر من الخطوط الخارجية ، كما ان قطر الدائرة أقصر من محيطها . ولكن الخطوط الداخلية القصيرة تعني احتشاد المصانع وهي ركن أساسي في الحرب الميكانيكية . والاحتشاد الصناعي يعني توفير الاهداف التي تتوخاها قاذفات الاعداء وهذا عين ما هو حادث في المانيا الآن

نعود الى النفط ومشتقاته فنقول ان ايطاليا لا تستطيع ان تنشىء في بلادها صناعة يعتدُّ بها للزيت المستخرج من الفحم لانها تحتاج الى استيراد الفحم على كل حال ولا تستطيع

استيراده الآن الا من المانيا ونقلهُ بسكك الحديد كبير النفقة . ولعلَّ هذه السكك مرهقة الآن بأعمال حربية أخرى . وما يستخرج من آبار المانيا قد لا يزيد على ٣٠٠ الف طن في السنة على أكبر تقدير ولكنهُ يكرَّر في مصانع بايطاليا معرضة لغارات الجوية وبعضها هو جم وأصيب

فتفط المانيا يكرَّر في باري وليثورنو بايطاليا وفي كل منهما يستخرج ١٢٠ الف طن من البنزين للسقي للطائرات و٣٠ الف طن للتشحيم . ولكن انتاج الآبار الالمانية محدود بشح الآبار وقلة ما ينقل بأنبوب النفط الممتد من منطقة الآبار الى فالونا . ومصانع التكرير في باري وليثورنو علاوة على مصانع التكرير في تريستا وفيرمي وبورتو مارجيرا وناپولي وسيراكوزا عرضة ، جميعها او معظمها ، لقنابل القاذفات البريطانية

فايطاليا من ناحية النفط ومشتقاته حالة على المانيا . أما رومانيا فتنتج الآن نحو ستة ملايين طن في السنة . وقد تكون خمسة منها جاهزة للاصدار الى المانيا . ولكن وسائل النقل بسكك الحديد وبنهر الدانوب لا يمكن في حال من الاحوال ان تتسع لأكثر من ثلاثة ملايين طن على أكبر تقدير . والغالب ان هذا تقدير مبالغ فيه . واسهل من ذلك استعمال بعض البترول الروماني في ميادين قريبة من رومانيا . والنفط نفسه لا يفيد كثيراً كما يخرج من الارض فلا بدَّ من تكريره . وأشهر معامل التكرير الرومانية في بلدة بلوستي . ولعلَّ القراء يذكرون ما قاله لوزوفسكي في موسكو عندما سأله احد الصحفيين عن احتمال ضرب الروس لبلوستي . فقال — بلوستي : لم يعد لها وجود !

اما ما كانت تستورده دولتا المحور من خارج اوربا فقد قطع عنهما الآن وعن جميع الدول الخاضعة لهما . وأما المخزون تأهباً للحرب فلا يعلم على وجه التدقيق وقد قدره خبراء البترول بنحو ثلاثة ملايين طن في سبتمبر سنة ١٩٣٩ ووضعهُ بعضهم قبل الحرب الروسية في حدود اربعة ملايين طن . ولا يظن ان هذا المخزون مُسَّ قبل الحرب الروسية ، لأن المانيا أخذت من البلدان المحتلة ما استفدتهُ في معارك احتلالها . ولكن من المحتمل انهُ مسَّ الآن بمدِّ كلّ ما استفدتهُ الحرب الروسية فيما مضى من صراعها العنيف . ولا بد ان يطرد النقص في المخزون اذا مضى القتال في روسيا على الوجه المعروف حتى الآن

ولذلك لا بد للقيادة الالمانية من ان تصل الى فوز حاسم سريع في الحرب الروسية . ومن اركان هذا الفوز — من الناحيتين السالبة والموجبة — الوصول الى مناطق النفط الروسي في القوقاس . ولكن دون هذا الوصول على ما نعلم مقاومة شديدة في جنوب أوكرانيا وعند مصب نهر الدون . ثم في بلاد القوقاس الجبلية الوعرة نفسها . والدفاع في هذه البلاد يستطاع تعزيزه من الجنوب اي من إيران

٤ — العرب والعلم (١)

هناك أناس يضربون على نغمة جديدة اقتبسوها عن الملحدين لفضل العرب والاسلام، وهذه النغمة تدور حول قولهم ان العرب لم يكونوا غير نقلة للعلوم ؛ ومن الغريب ان لا نجد من رد عليهم ، ومن الغريب أن يكون الرد عليهم من عالم أميركي اشتهر بالبحث والتنقيب . قال الدكتور سارطون : — « . . . ان بعض الغربيين الذين يجدر بهم ان يستحقوا بأن أسلافه الشرق الى العمران يضحكون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا اليها شيئاً ما ....هذا الرأي خطأ ... لو لم تنقل الينا كنوز الحكمة اليونانية لتوقف سير المدنية بضعة قرون ...» ويمضي الدكتور في كلامه فيقول : — «... ولذلك فان العرب كانوا أعظم صانعين في العالم في القرون الثلاثة : الثامن ، والحادي عشر، والثاني عشر للميلاد »

ولقد ظهر عند العرب علماء عباقرة أسدوا جليل الخدمات كالتي أسداها نيوتن وفراداي ودلتجن وغيرهم من نوابغ الغربيين . وقد اعترف سارطون وسمث وكاجوري وبول بأن العرب أخذوا بعض النظريات عن اليونان وفهموها جيداً وطبقوها على حالات كثيرة مختلفة ، ثم كوّنوا من ذلك نظريات جديدة وبحوثاً مبتكرة فهم بذلك قدموا للعلم خدمات جليلة لا تقل عن الخدمات التي أتت من مجهودات كبار رجال الاختراع والاكتشاف في الغرب

اننا أولى من غيرنا بمعرفة عباقرتنا ونوابغنا . انهُ لواجب مقدس علينا ان نهتم بتراثنا وبما أورثه أسلافنا الى الأجيال

أليس من العيب الفاضح ان لا يعرف الناشيء العربي ان الخوارزمي هو من كبار رياضي العالم وانهُ أول من وضع الجبر في شكل مستقل عن الحساب وقد بوّبهُ ورتبهُ وزاد عليه زيادات هامة تعد أساساً لكثير من بحوثه . وعلم الجبر هذا من أعظم أوضاع العقل البشري لما فيه من دقة وإحكام في القياس . ولقد جمع العرب بين الجبر والهندسة وطبقوا الهندسة على المنطق كما طبقوا أكثر العلوم على مختلف مرافق الحياة . واعترف كاجوري بفضل العرب على الجبر فقال «... ان العقل ليدهش عندما يرى ما عملهُ العرب في الجبر »وقال أيضاً : — « ... ان حل المعادلات التكعيبية بوساطة قطوع المخروط من أعظم الأعمال التي قام بها العرب» ويمكن القول ان بحوث العرب في الجبر والهندسة وفي الجمع بينهما كانت سابقة لبحوث ديكارت وفرما

أليس غريباً ان لا يعرف كثيرون ان العرب هم الذين هذبوا الأرقام الهندية التي نستعملها

(١) من مقدمة قدري حافظ طوقان لكتابه « مآثر العرب في الرياضة والفلك » وهو هدية المقتطف السنوية

الآن والتي وصلت الغرب بوساطة الكتب العربية . وليس المهم هنا تهذيب الدروب للارقام بل المهم ايجاد طريقة جديدة لها ، طريقة الاحصاء العشري ، واستعمال الصفر للغاية التي نستعملها الآن ووضع علامة الفاصلة للكسر العشري ، ولا يخفى ما لذلك من أثر في تقدم الرياضيات والعلوم وارتقاء الحضارة في مختلف نواحيها

على سمع القارىء شيئاً عن البتّاني الذي امتاز على غيره بمواهبه وقد تبوّأ مركزاً عالياً في ميادين العلوم ولاسيما في الفلك والمثلثات والهندسة والجبر . ولقد اطلع لالاند وهو عالم غربي بارع في سماء البحث والاستقصاء والانتاج ، أقول اطلع لالاند على مآثر البتّاني فكان أن عدّه من العشرين فلكيًّا المشهورين في العالم كله. وكان من العرب علماء آخرون أدهشوا الاوربيين وحملوهم على الايمان بقوة العقل العربي وابداعه. ومن هؤلاء العلماء ابن سينا الذي قال عنهُ سارطون انهُ من اشهر مشاهير العلماء العالميين والكندي الفيلسوف الذي سنرى ذكره في كل نادٍ وهو من الذين امتازت مواهبهم بنواحيها الفديدة ومن الذين عدّهم كاردانو من الاثنى عشر عبقريًّا الذين من الطراز الاول في الذكاء في العالم كله

أليس من المؤسف حقًّا ان لا يعرف الناشىء العربي ان اجداده تبنّوا الكيمياء وأنهم أبدعوا في الابتكار فيها وانهم سبقوا الغربيين في الالتجاء الى التجربة ليتحققوا من صحة بعض النظريات . واليهم يرجع الفضل في استحضار كثير من المركبات والحوامض التي تقوم عليها الصناعة الحديثة . فلقد استحضروا مركّبات تستعمل الآن في صنع الصابون والورق والحرير والمرقعات والاصبغة والسماد الاصطناعي . وقد يجهل كثيرون أن جابر بن حيان هو من ألمع علماء الكيمياء العالميين ومن الذين أضافوا اضافات هامة الى الثروة الانسانية العلمية جعلته في عداد الخالدين المقدمين في تاريخ تقدم الفكر . وقد يدهش القراء اذا قلنا أنه وجد في الأمة العربية من اشتهر في كثير من العلوم كالبيروني ومن كان ذا كعب عالٍ فيها فاق علماء عصره وعلا عليهم وكانت له ابتكارات قيمة وبحوث نادرة في الرياضيات والفلك والتاريخ والجغرافيا . وقد توصل سخاو بعد دراسة حياة البيروني وبعد اطلاعه على مؤلفاته الى الوقوف على حقائق لم تكن معروفة خرج منها باعتراف خطير وهو : — « أن البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ » . ولو أن هذا الاعتراف صدر عن باحث عربي لرمي بالتحيز والمغالاة ولكنهُ بحمد الله صادر عن عالم يزن كلامه ولا يبدي رأياً الا بعد بحث وتمحيص . ومن بحّاث الغرب من جعله دراسة التاريخ والجغرافيا على القول بأن مقدمة ابن خلدون هي أساس التاريخ وحجر الزاوية فيه ولان كتاب معجم البلدان لأبي عبد الله ياقوت هو معجم غني جدًّا بالمعرفة وليس له من نظير في سائر اللغات..... الخ

الآثار العراقية

بين الماضي والحاضر

بقلم كوركيس عوّاد

١ — تحرير

ليس من اليسير على الباحث ، ان يتناول في صحائف قلائل ، موضوعاً عامّاً ، واسع النطاق كالبحث عن الآثار العراقية القديمة . لأن العراق ، او بتعبير تاريخيّ أدق . « وادي الرافدين » ، من الأقطار الغنية ، بآثارها العريقة في مجدها وحضارتها

ومعروفٌ لدى الباحثين ، ان أقدم المدنيات هي تلك التي سادت ضفاف الأنهار : فمدنية الرافدين مثلاً نشأت عند شواطئ دجلة والفرات وسواعدها ، والمدنية المصرية قامت على ضفاف النيل ، كما ان المدنية الهندية كانت مبنية على جوانب السند ... ونوعسا ان نقول إن للانهار في نشر الحضارات البشرية شأناً يفوق شأن البحار ، وذلك نظراً الى سهولة الاستفادة من الأولى في قديم الزمان ، وصعوبتها من الثانية . فالبحار في عرف الأقدمين كانت أشبه شيء بالصحارى من وجهة الاستفادة ! وعليه لا غروَ إذا كانت الحضارة في أول نشوئها ألصق بالجهات النهرية منها بالجهات البحرية !

إن حضارة ما بين النهرين لم تكن تحدّها حدود جغرافية حاسمة ، بل كانت تبدأ شمالاً بمنابع دجلة والفرات ، ثم تسير جنوباً حيث يسيران حتى يبلغا البحر . على ان هذه الحضارة كان يتنابها تمددات وتقهقرات وفقاً للظروف والأحوال ! فقد دلّنا التاريخ على أنها كانت تتعطف أحياناً غرباً حتى تشمل أعالي سورية ، أعني سفحي الفرات الشمالي والخابور ، ولعلها كانت تمتد في بعض الاحيان الأخرى الى أكثر من ذلك ، فتشمل سفحي الاردن أيضاً ! وهذا ما حمل بعض العلماء المعاصرين على تسمية تلك البقعة بأسرها باسم « الهلال الخصيب » ، أحد رأسيه في جنوبي العراق وثانيهما في جنوبي فلسطين . والحق ان هذا الهلال لمن أخصب بقاع العالم ، كما أنهُ من أقدم المواطن التي عمرت بالسكان

ولقد توالت على وادي الرافدين منذ آلاف السنين ، دولٌ عديدة ، رابيت في سهوله

الخصيبة أمم كانت قد بلغت من الرقيّ شأواً بعيداً حيّر العلماء في عصرنا . ويؤخذ مما توصل اليه علم الآثار ، ان تاريخ وادي الرافدين من أطول تواريخ الأقطار في العالم : فهو يتألف من حقبة مديدة من الزمن ، تبلغ السبعة الآلاف من السنين بحسب معلوماتنا الحالية ومن يدري ؟ فلعل وراء ذلك آثاراً تسبق العهد الذي ذكرناه، مما لا يزال أمرها رهن التراب !

ولما كان وادي الرافدين من الساحات الأثرية الترامية الأطراف الضاربة في أعماق التاريخ كان الكلام على كل دولة قامت فيه، او على ما بقي لنا من آثارها أمراً متعذراً في مثل هذا المقام لذلك سنتناول في بحثنا هذا الكلام بوجه عام على آثار العراق في عهوده التي سبقت الاسلام والتي تلته ، ثم نعقب على ذلك بلمحة في تكوين دور التحف العراقية

٢ — بدء دراسة آثار العراق

قبل نحو مائة وخمسين سنة كانت معرفة العلماء بآثار العراق وبتاريخه القديم شيئاً ضئيلاً لا يتجاوز ما رووته عنهما التوراة ، او بعض المصنفات المؤتمَّة (الكلاسيك) ، كتاريخ هيرودوتس وزينفون وديودورس واسترابون ويوسيفس وأميانس مرسلّينس وأضرابهم . فلا غرابة اذا كان وقوف العلماء حينذاك على آثار العراق وقوفاً ناقصاً مشوّهاً ، يلازمه الخيال ويعتريه الوهم ، وتلابسه المزاعم والظنون ! ومن يطالع كتب التاريخ او أخبار الساحات التي وضعها أولئك العلماء قبل تلك المدة المذكورة ، ويتدبر البحوث التي دونوها عن أمثال هذه الشؤون ، يقف متعجباً من تلك الآراء الغريبة التي أضحت اليوم بفضل تقدم علم الآثار ضرباً من الأساطير ! على ان تلك المدونات بالرغم عما فيها من قصور ووهن ، أصدق شاهد يمثل لنا علم الآثار وهو في مهد طفولته ، بل انها أول المراحل في دراسته ، والأساس الذي شيدت فوقه البحوث الرصينة التي تلته

ويمكننا ان نعزو التقصير المذكور في معرفة آثار ما بين النهرين الى عاملين رئيسين :

الاول : جهل أرباب الآثار ، وقتذاك للّغات القديمة التي كانت سائدة في هذه المنطقة او في ما يجاورها ، من البلدان جهلاً تامّاً . وتلك اللغات هي : السُّمرية والأكّدية (الكلدانية — البابلية) والآشورية والكيانية [1] والكاسية والعيلامية والحثّية والجوتيّة وغيرها

الثاني : عدم القيام بالحفريات والتنقيبات العلمية في المواقع الأثرية ليستدلّ بها على ماضي المدن العراقية وقراءة المندثرة وعلى ما كان عليه القوم في ذلك العهد البعيد من سُبل الحضارة والعمران

(١) الكيانية : عرفت بهذا الاسم لدى المستشرقين العرب الاقدمين . وهي لغة القوم المعروفين عند علماء الافرنج باسم Achaminides أو Achéménides

٣ — حل الكتابة المسمارية

وتُعَدّ سنة ١٨٤٧ م ، من أبرز السنوات في تاريخ دراسة الآثار العراقية ، بل كانت سنةً فاصلة في حياة هذا العلم : فلقد توصّل فيها أحد كبار العلماء المحدثين وهو السر هنري رولنسن [1] Sir H. C. Rawlinson (١٨١٠ — ١٨٩٥) الى حلّ رموز «الكتابة المسمارية» . والمسمارية ضرب من الكتابة أُطلقت هذه التسمية لشابهتها المسامير [2] الى اللغات القديمة التي كانت شائعة في وادي الرافدين ، كانت تُدَوَّن بهذه الكتابة ، على اختلافٍ في الاشكال والإشارات . بل انّ هذا النوع من الكتابة كان يعمّ اغلب ما جاوره من الأقطار ولقد وُجدت حقيقةً كتابات عديدة من هذا القبيل في ايران وتركية وسورية وغير ذلك من البلدان

انّ حلّ رموز تلك الكتابات فتح أمام الباحثين باباً كان مُوصَداً ، وذلّل لهم عقبةً كؤوداً ! فالكتابات المسمارية ، بعدَ أن كانت فيما مضى طلسماً من الطلاسم ، حتى انّ أحد العلماء [3] لم يتردّد يومئذٍ في اعتبارها زخارف ونقوشاً عجمة ، صار بمقدور من تعلمها منهم . أن يقرأ عشرات بل مئات النصوص المستخرجة من مختلف هذه البقاع ، فيستخلص منها حقائق ثمينة كان لتناولها أجلّ الفوائد

وكان أكثر ما اهتم به العلماء في هذا الصدد ، قراءة تلك النصوص القديمة المكتشفة وإذاعتها بين الأندية العلمية ، للاستفادة من مضامينها وللوقوف على الشؤون التاريخية والدينية والأدبية والسياسية والاقتصادية والشرعية وغير ذلك مما كان متبادلاً بين سكّان هذا الوادي كالسومريين والبابليين والأشوريين وغيرهم من الأقوام

إنّ تلك النصوص القديمة ، دوّنها أصحابها على الآجرّ وعلى قطع الأحجار المختلفة الحجوم والألواح الرخامية الكبيرة والتماثيل الهائلة العظيمة ونظائرها مما صبر على الدهر ... وما لم ينشرهُ العلماء منها يفوق ما نشروه حتى يومنا . ومع ذلك ، فانّ المنشور منها يكوّن خزانة كتب قائمة بذاتها ، تتألّف من مئات المجلدات ، فضلاً عن أضعاف هذا العدد من المقالات والكراريس...

ولا يتصوّرنّ القارىء انّ التوصّل الى قراءة تلك الكتابات كان امراً ميسوراً ،

---

(١) طالع ترجمته في كتاب : أعلام المقتطف (ص١٦٠ — ١٦٢) وفي كتاب Budge : Rise and Progress of Assyriology (London, 1925, pp. 47-129

(٢) تسمى بالافرنجية Cuneiform أو Cuniform

(٣) هو الرحالة الايطالي الشهير بترو دلا فاله Pietro Della Valle الذي قضى خمس سنين (١٦١٦ — ١٦٢١م) في جوب انحاء أشور وبابل وايران وغيرها

فالحقيقة هي انه من أصعب الامور ، بل من أعقد المشاكل التي ذُلّلت في تاريخ العلم ، ولم يُتَغَلَّب عليها إلاّ بالجهد البليغ والصّبر الطويل والتتبع الدائم سنين عديدة ! فقراءة الكتابة المسمارية من أجلّ الموفّقيات في تاريخ الآثار العالمية ، ولا يوازيها قيمةً سوى قراءة العلاّمة شمپوليون (J. F. Champollion) الكتابة الهيروغليفية سنة ١٨٢٢

واذا ابتغينا وجه الانصاف في هذا الصدد ، قلنا إنّ رولنسن لم يكن اوّل من اشتغل بهذا الباب ، بل سبقه الى هذا الميدان علماء آخرون[١] ، حاول كلٌّ منهم ان يحلّ تلك المعميات ، لكنهم لم يصلوا الى نتائج ظاهرة تحسم الموضوع ، حتى جاء هو فكشف اللثام عما اعتاص على غيره . ثم ساهم بعده عدد غفير من العلماء في تشييد هذا الصرح العلمي بحيث تكاملت بعض أقسامه ولا تزال أقسام أخرى بحاجة الى درس وتدقيق نظر فيها

ويطول بنا القول اذا اردنا ان نبين كيف توصّل رولنسن ، ومن حذا حذوه ، الى قراءة تلك الكتابات لاول مرة ، فان هذه الناحية وحدها تتطلب بحثاً خاصًّا ، بل انه سبق لنا ان أفردنا لهذا الموضوع ، مقالة نشرت في مجلة الرسالة بعنوان « حجر بهستون مفتاح الكتابة المسمارية »[٢] ولعلّ في الرجوع اليها ما يغني عن الاطالة فيه هنا

٤ — الحفريات الاثرية

أما الحفريات ، فقد بدأت في العراق منذ أوائل القرن التاسع عشر ، واستمرت بعد ذلك — عدا فترات متقطعة — حتى سنتنا الحالية . ان نطاق الحفر أخذ يتسع شيئاً فشيئاً فبعد ان كان في مبدإ أمره مقتصراً على المواقع الشهيرة البارزة جدًّا ، كبابل وأشور ونينوى وكالح وخرساباد[٣] ، اتسع بحيث شمل الآن ما يربي على الخمسة والخمسين موقعاً ! وبعد ان كان العلماء يستهدفون في حفرياتهم القديمة « استخراج التماثيل الضخمة والآثار الكبيرة » ، صاروا يقنعون باليسير ، بل قد يجدون في بعض التلى « الصغيرة » ما تفوق خطورته ذلك التمثال الكبير ! وبعد أن كانت مساعي العلماء منحصرة في نبش المواقع التي تعود الى الادوار المتأخرة من تاريخ العراق القديم بالنسبة الينا ، أخذوا يتوغلون في مجاهل الماضي السحيق ، ويتغلغلون في أعماق التراب فيقعون على أقدم الآثار عهداً وأبعدها زمناً !

أما ما استخرج من « المواد الاثرية » من هذه المواقع طوال هذه السنين فيكاد يخرج عن دائرة التصديق لوفرته وخطره ونفاسته

---

(١) نذكر منهم Grotefend و Rask و Burnouf و Lassen

(٢) الرسالة العدد ٨١ الصادر في ٢١ يناير ١٩٣٥ ، ص ٩٠ — ٩٥

(٣) اسمها الاشوري « دور شاروكين » ، وكانت تعرف في العصر الاسلامي باسم « خرساباد »

ان هذه الحفريات الواسعة قامت بها بعثات علمية من مختلف الجنسيات بينها: الانكليزية والفرنسية والألمانية والأميركية والايطالية. ومنذ سنة ١٩٣٦ أخذت دار الآثار القديمة في العراق تنهض بأعمال الحفر والتنقيب في بضعة مواقع، خاصة في المواطن الاسلامية التي لم يعرها الأجانب الاهتمام الذي تستحقه. وهكذا بعد ان كان تاريخ وادي الرافدين يقوم على الأساطير والأقاويل، أصبح يستند الى علم الآثار المبني على نتائج الحفريات العلمية المنظمة

إن الاستمرار على هذه الحفريات والامعان في توسيع نطاقها سوف يزيدنا معرفة بماضي هذه البلاد ويقفنا على ما خبأته يد الزمن من ذلك التراث الخالد الذي يؤهلنا لتكوين « تاريخ » لهذا القطر متكامل الحلقات متلاحم الأجزاء. وقد ذكرنا آنفاً، ان المواقع التي جرى التنقيب فيها تربي على الخمسين موقعاً. والآن نضيف اليها ان المواقع الأثرية التي لم ينقب فيها حتى الآن تبلغ أضعاف هذا العدد. ان نظرة عاجلة يلقيها المرء على نشرة « التلول والمواقع الأثرية في العراق »[1] التي أصدرتها دار الآثار القديمة تبين له ان عدد المواقع الأثرية التي تمّ تسجيلها والاعلان عنها يبلغ نحواً من ألف وثلثمائة موقع!

فما قولك فيما لو تيسر الحفر في هذه المواقع او في بعضها واستخراج ما تحتكنه من الدفائن والتحف التي من شأنها ايضاح ما أشكل من تاريخ العراق القديم وفتح ما استغلق على العلماء والباحثين؟

٥ — ما أصاب العراق من آثاره

ونقول الآن: ما مصير هذه الكشوفات؟ لقد مرّ بالآثار المستخرجة من العراق أدوار ثلاثة

الأول: يشمل الآثار التي استخرجت قبل الحرب العالمية الماضية وهذه الآثار كانت — — حين اكتشافها — تنقل برمتها الى المتاحف والمؤسسات الغربية التي كانت توفد من يقوم بالحفريات في العراق. كما ان بعضها كان ينقل الى استانبول عاصمة الدولة العثمانية. أما العراق فلم يكن داخلاً في الحساب وعلى هذا، لم ينل من ذلك التراث شيئاً قليلاً ولا كثيراً..! وفي الواقع ان الآثار المكتشفة في أرض العراق، كانت نهباً يتقاسمه الأجانب... فهل من غرابة إذا وجدنا المتاحف في بلدان الغرب تزخر بتلك الآثار النفيسة، وتفخر بكونها قد أحرزت تلك الكنوز العجيبة!

الثاني: وهذا يشمل ما استخرج من آثار العراق في دور الاحتلال والانتداب البريطاني له. وقد جعل للعراق منها حصة محدودة، صارت نواة للمتحف العراقي الحالي. ومع ذلك

(١) ظهرت سنة ١٩٣٩، ثم تلاها ملحق سنة ١٩٤١ والذي يؤخذ من صحيفة « الوقائع العراقية » أنه كشف مواقع أخرى عديدة زيادة عما جاء في هاتين النشرتين

فن « قانون الآثار القديمة » السابق [1] منح الأجانب حقوقاً واسعة ، كان من أظهر نتائجها خروج عدد وفير من آثار العراق الى الأقطار الغربية

الثالث : وهو دور استقرار الآثار في العراق ورسوخها فيه . وقد بدأ منذ إنشاء الحكومة العراقية ، فأخذ الاهتمام بشأن الآثار طوراً جديداً في هذا الدور ، بما تؤديه « مديرية الآثار القديمة » من العناية بمصلحة هذه الآثار والسهر عليها ، وبما تشترعهُ الدولة العراقية من النظم والقوانين ، وبما تتخذه السلطات الحكومية المختلفة من صنوف التدابير لصيانتها والمحافظة عليها من عبث العابثين بها

إن هذا الاهتمام أدى الى ما كانت تتوخاه البلاد من «حصر آثار العراق بالعراق» . فكان لهذا المسعى التأثير المحمود في تطوّر « المتحف العراقي» واتساعه بالوجه الذي يُرى عليه الآن

إن «حصة» الأجانب الذين يتولون الحفر والتنقيب في العراق ، قد تقلصت اليوم كثيراً وحُدّدت بالنظر الى ما ينصّ عليه « قانون الآثار القديمة » الأخير [2] ، فهذه الحصّة لا تتجاوز بعض « المكررات » و« النظائر » للآثار المستخرجة . أما الآثار الرئيسية والقطع الفريدة ، فمن حصة العراق بأجمعها

وعلى هذا المنوال ، اتسعت الثروة المتحفية في العراق بالرغم من قصر المدة التي مضت عليها . وصار المتحف العراقي ، المؤسس في بغداد سنة ١٩٢٣ ، يضم في قاعاته عشرات الآلاف من المواد الثمينة التي تمثل أدوار السكنى في وادي الرافدين ، منذ أقدم العصور حتى ظهور الاسلام . وبين هذه الآثار ما هو فريد في بابه ، لما يتضمنهُ من الدلالة الأثرية والقيمة العلمية ، فضلاً عن كونهِ مستخرجاً من مواقع سحيقة في القدم . وهذه لعمر الحق ثروة لا يمكن تقويمها بمال . فاذا ما استعرضنا هذه الآثار ، ألفينا فيها مختلف الصنوف والأشكال منها : المنحوتات الكبيرة والتماثيل ، والكتابات والنقوش والتصاوير ، والنقود والختوم والحلى والأسلحة والأواني وغيرها مما لا يقع تحت حصر

ويسهل على المرء ان يعلم ، ان بعض هذه الآثار متخذ من الحجر بأنواعه كالرخام والصخر والآجر والقطار وبعض الأصداف والأحجار الكريمة ، وبعضها من المعدن كالذهب والنحاس والحديد ، والبعض الآخر من العظم والزجاج والخشب ، وغير ذلك من المواد

ثم إن بعض هذه الآثار يعود الى الأدوار الحجرية الأولى ، وبعضها الى ما تعاقب من الأدوار الأخرى . ومن ثمة ، كان تاريخ وادي الرافدين طويلاً غاية الطول ، واسماً الى أبعد

(١) صدر في ٢٦ / ٦ / ١٩٢٤ وظل مشمولاً به حتى ٢٢ / ٤ / ١٩٣٦

(٢) صدر في ٢٣ / ٤ / ١٩٣٦ ، وما زال نافذ المفعول

حدود السمة . إذ يبدأ من أبسط مراحل العيش ، فيأخذ في معارج التقدم والرقي دوراً بعد دور ، حتى يبلغ القمة . وبلوغ القمة نذير بدنو الهبوط والانحطاط ! وهذا ما حصل لتلك الدول والدويلات العديدة التي نشأت فيه ، فانها بعد ان تقدمت في سُبُل الرقي ، اتابتها عوامل الضعف مما لايتسع المجال لبيانها هنا ، فما لبثت ان انتهى بها الأمر الى التأخر فالخمول فالفناء ! وأمسى الحديث عنها من صميم موضوعات التاريخ !

٦ — الآثار العمرانية

بعد ان جرى الفتح الاسلامي للعراق ، اهتمّ القائمون بالحكم فيه بتأسيس المدن لتكون قواعد او عواصم لهم . فأسست البصرة سنة ١٤ للهجرة ، والكوفة سنة ١٧ ، وواسط نحو ٨٦ ، وبغداد سنة ١٤٥ ، وسامراء سنة ٢٢١هـ . هذا فضلاً عن توسيع ما كان عامراً من البلدان قبل الفتح ، كالموصل وتكريت وإربل وغيرها ، وإدخال التطورات والتحسينات عليها

لقد كان في كل من هذه المدن ما يتناسب وسعتها من المساجد والمدارس والقصور والدور والأسواق والمقابر وغير ذلك من العمارات التي تقتضيها مرافق الحياة اليومية . وطبيعيّ انهُ كلما كانت المدينة أعظم جاهاً من الوجهة الحكمية كان عمرانها اكثر استبحاراً والعناية بتنسيقها وتجميلها أبلغ أثراً

وما ذكرنا من المدن ، إما أن يكون قد خرب خراباً نهائيًّا ولم يبق منهُ سوى أطلال شاخصة او تلول تنبيء عما تكنهُ تحت ثراها ، كما هو الحال في واسط مثلاً ، وأما أن تكون يد الدهر قد تلاعبت بعمايرها ، فأخربتها اولاً ، ثم عادت فجددتها في ما يجاورها من البقاع ، فاجتمع القديم والجديد في صعيد واحد ! وعلى هذا الوجه صرنا نرى اليوم ، الى جانب بعض المدن المندرسة مدناً جديدة مسماة باسمها القديم : فهناك سامراء القديمة وسامراء الجديدة ، ومثل هذا قل عن بغداد والبصرة والكوفة وغيرها من البلدان

عاشت هذه المدن قروناً عديدة ، ومرّت عليها احوال اطمأنت فيها الى الحياة ، فذهبت تسعى الى تنظيم وسائل عيشها واستكمال اسباب رفاهها ، وهما أمران يؤديان الى تحسين الصناعة ورفع عمادها في البلاد

ان الصناعة بلغت شأواً لا يجارى في العصر العباسي ، وهو عصر اتّساع رقعة الدولة العباسية ونضج الحضارة الاسلامية . فكان خلفاء بني العباس وسائر الأمراء والوزراء وأماثل الناس يبالغون في تجميل قصورهم ويعنون بجعلها آية من آيات الفن ! فزوقوها فنّ البناء أيّما تزويق وسايروه فن الزخرف والنقش ، وتبع ذلك الاهتمام بتجويد صنع الأثاث الذي يتناسب وعظمة تلك المباني وأبهة أصحابها ! ولكن ما مصير تلك العمارات

ان قصور الخلفاء الرائعة وسائر البنايات ، سواء أفي بغداد كانت أم في غيرها من المدن ، لم يبق منها — ويا للاسف — ما يستحق الذكر ..! والاسباب التي أدّت الى محو تلك الآثار أو عملت على تلاشيها بهذا الوجه كثيرة ليس هنا محلّ شرحها . وقد نجم عن خرابها ضياع الفائدة على الباحثين اليوم من الوقوف على ما كانت عليه إبّان عزّها . ولولا ما بين يدينا من المؤلفات القديمة التي تصف لنا بعض تلك المباني وتشيد بذكر ما كان فيها ، لكانت معرفتنا لها شيئاً يكاد لا يذكر .

٧ — صيانة الآثار الاسلامية

شرعت دار الآثار العراقية ، منذ سنة ١٩٣٥ ، بصيانة وترميم عدد من هذه الآثار الاسلامية التي أفلتت من عوادي الزمن ، بعضها في بغداد : كمنارة جامع الخلفاء (في سوق الغزل الحالي) والقصر العباسي (في قلعة بغداد) ، والباب الوسطاني ، وخان مرجان

كما انها وجّهت عنايتها الى طائفة صالحة من الآثار الاسلامية القائمة خارج بغداد : كقصر الأخيضر (على مسافة ٥٥ كيلومتراً من جنوب غربي مدينة كربلاء) ، ومسجد الكوفة ، والباب الأثري في واسط ، وجسر حربى (على مسافة ٨٧ كيلو متراً من شمالي بغداد) وجامع الجمعة ومئذنته « الملوية » وجامع أبي دُلَف ، وقصر الخليفة . وهذه المواقع الأربعة الأخيرة قائمة في أنحاء سامراء

وقد يضيق بنا المقام لو نحاول ان نحصي سائر الآثار والمباني التي تناولتها يد الاصلاح فأحيت مناظرها وأوضحت معالمها . هذا من وجهة البنايات الفاخرة ، فاذا انتقلنا الى الآثار « الدفينة » وجدنا العمل يدعو الى الاغتباط : فقد أمكن القيام بحفريات منظمة في بضعة مواقع إسلامية من ذلك مدينة سامراء ومدينة واسط الثانية استمر التنقيب فيهما بضع سنوات فأسفر عن نتائج مهمة حيث أستخرج من كليتهما مجاميع أثرية بعضها منقطع النظير وهناك مواقع أخرى — كالانبار والحيرة وتكريت وسنجار وغيرها — جرت فيها تنقيبات تمهيدية دلّت على غزارة ما تحويه من الآثار

٨ — متاحف العراق

والآن لننتقل الى الكلام على المتاحف في العراق : إن المبدأ الذي يسار عليه بشأن المتاحف في العراق ، هي ان كافة آثار البلدان العراقية تجمع في « المتحف المركزي » المقام في العاصمة بغداد . غير انه لما تكاثرت هذه الآثار وتزايدت هذا التزايد الهائل صار من المتعذر عرضها جميعاً في البناية الحالية لهذا المتحف ، لذلك وزعت بين عدة بنايات في بغداد

فالآثار التي تسبق الدور الاسلامي معروضة بأجمعها في « المتحف العراقي » الذي سبق الكلام عليه في هذا المقال [١]

كما ان الآثار العربية عرضت سنة ١٩٣٧ في « دار الآثار العربية » [٢] المتخذة في بنايه «خان مرجان» الأثرية . وهذه البناية شيدها أمين الدين مرجان [٣] سنة ٧٦٠ للهجرة

في هذا المتحف أنواع الآثار الاسلامية : فهناك الزخارف الجصية والفخار والخزف العادي والمصبوغ والمزجج والحلي والمنسوجات والأحجار المكتوبة والمحاريب وقطع الأثاث والأواني المعدنية والمصنوعات الجلدية والخشبية والزجاجية ذلك فضلاً عن طائفة من المخطوطات العربية التي فيها ضروب الخط والزخرفة والتجليد والورق والألوان !

وهناك « القصر العباسي » وهو من بنايات أواخر العصر العباسي . اتخذ سنة ١٩٣٥ معرضاً [٤] يضمّ مخلفات المقصور له الملك فيصل الأول والصورات التي تمثل أهم البنايات الاسلامية القديمة في العالم

أما «الأسلحة القديمة» فقد عرضت سنة ١٩٣٩ في متحف ماثل في «الباب الوسطاني» وهذا الباب إحدى بنايات بغداد الأثرية وكان يعرف قديماً بباب الظفرية . ويلاحظ ان السور الذي كان يطوف ببغداد قد زال من الوجود بكامله كما زالت الأبواب التي كانت فيه ، ولم ينج من جميعها سوى هذا الباب !

وفي هذه السنة ١٩٤١ افتتح متحف آخر في بغداد ، لعي به « متحف الأزياء القديمة » التي كانت تستعمل في مختلف انحاء العراق ثم زال استعمالها أو كاد . هذه هي فروع «المتحف المركزي » الموجودة في العاصمة . وهنالك « متاحف محلية » تقام في المدن القديمة ، أو بجانب بعض الأطلال الأثرية . والغرض من اقامتها هو ان تضم المواد الأثرية الموجودة في تلك المدينة أو فوق ذلك الطلل مما يتعذر نقله الى المتحف المركزي كما انها تضم الآثار المستخرجة من جهات العراق المختلفة

ومن هذه المتاحف المحلية « متحف بابل » وهو في أطلال بابل ذاتها وقد افتتح سنة ١٩٤٠ . و «متحف سامراء » في مدينة سامراء الحالية وقد تم افتتاحه سنة ١٩٤٠ ايضاً

وربما لن تمضي مدة طويلة حتى تشاهد متاحف محلية أخرى في بعض المدن العراقية ، كالموصل وكربلاء والنجف وغيرها

(بغداد) كوركيس عوّاد

(١) لهذا المتحف دليل مطبوع بالعربية والانكليزية
(٢) لدار الآثار العربية دليل مطبوع بالعربية
(٣) هو من ولاة بغداد . كانت وفاته سنة ٧٧٤ هـ وله آثار أخرى غير هذا المكان
(٤) لهذا المعرض دليل مطبوع بالعربية والانكليزية كما أن للقصر العباسي ذاته دليلاً آخر بالفتيين المذكورتين

فن الحياة (١)

للدكتور ابراهيم ناجي

قبل ان نتكلم عن فن الحياة ، نتناول بالتعريف بضع كلمات صارت من الشيوع بحيث لم نعد نفكر في معناها الحقيقي ، او على الأصح لم نعد نراجع أنفسنا في معناها ، وبكلمة أدق جرت مجرى المتعارف المألوف حتى لم نعد نعنى بالبحث في معناها

أقول ان محاضرتي الليلة هي عن فن الحياة . عنوان المحاضرة كلمتان — فن وحياة . فلنأخذ كلمة « الحياة » ولنسأل ما هي ؟ ؟ أجل ما هي حياتك أيها المستمع اليوم اليّ ؟ ؟ إني لواثق أني لو سألت أكثر الناس ما هي الحياة لتردد صدى السؤال ولسمعت همساً « الحياة ! الحياة ! ... » والغالب اني لن أسمع جواباً ، بل صدى سؤال . وسأرى اطراقة تفكير ، ونظرة ذاهلة ، ووجوم محيّر يطلب شيئاً من الامهال ليحسن الاجابة . ان مجرد البحث في تحديد كلمة الحياة أيها السادة يستدعي الالمام بعلوم عديدة ، ولن يضيع الانسان وقته عبثاً ، فهو مخلوق تجري « الحياة » في دمائه فكيف يجوز له ان يجهل كنه ما يجري في دمه ! الحياة عند علماء النفس تفاعل بين عالمين — بين عالم خارجي ، هو الكون بما اشتمل عليه من العناصر المختلفة ، وعالم داخلي ، هو عالم النفس . فالأخذ والرد بين هذا وذاك ، الموازنة بينهما ، تكييف الضغط (Tension) العلاقة بين ذاتيتنا والموضوعية الكبرى — تلك هي الحياة . والكلام عن الحياة ، يقتضي إذن الكلام عن الناحيتين ، الخارجية والداخلية كالميزانية بابيها ، مصروف وإيراد ، وكالأمة بسياستيها داخلية وخارجية . وكما يحدث دائماً حين تستعرض الدولة ميزانيتها او سياستها ، تراجع الدولة ماضيها وتوازنه بحاضرها لكي تدبر أمر مستقبلها ، فنحن على هذا القياس ، يحسن بنا ان نستعرض أمر الحياة من مبدئها على أيّ نهج سارت وكيف تطورت ولماذا ، والى أي غاية تسير ، وهل هي تمضي قدُماً ، أم تتعثر وتضمحل ؟ لقد أحسن « هاڤيلوك اليس » كل الاحسان عند ما شبه الناس بجيش كبير ، في مقدمته بضعة قواد وفي مؤخرته خدمة الجيش وبين هؤلاء الجيش القتالي السائر على هدى

(١) خطبة القيت في جمعية الشبان المسيحية

شيئين: الغرائز والتقاليد. ووراء هؤلاء القادة الذين في المقدمة وهم الذين يمثلون العقل والتفكير يكمنون له الأسواد ويرودون له المجاهل فهم الروّاد أي Pioneers ، السواد الاعظم من الناس بغير شك يعيشون كما يعيش هذا الجيش الذي يصفهُ هافيلوك اليس: وقد اختصر هافيلوك اليس معنى الحياة — الحياة بلا كلام عن فن ولا سمو ولا جمال — في هذه الغرائز والتقاليد التي تحكمت في التقطيع على طول الاجيال وستتحكم فيهِ الى آخر الزمن. وكذلك اختصر كانة الاخلاق او عرفها، إذ جعلها مرادفة للتقاليد والعادات، وهو على صواب، إذ أن الكثرة الغالبة من الناس، هم عبّاد تلك التقاليد والعادات، وكما قال الدس هكسلي انها تنتقل من جيل الى جيل حتى تتخذ على الزمن حرمة وهيبة! . . .

والواقع ان هاته التقاليد والعادات، وان اختلفت في الامم فما هي الاّ قوانين ضرورة أو بالأصح هي القوالب التي تصب فيها الحياة، لكي لا تتفكك أو تضمحل

هذا أمر السواد الاعظم من الناس، فما شأن اولئك القادة الذين يتقدمون الصفوف؟

ما حكم هذا المشعل السائر في الطليعة، ما حكم هؤلاء العاقرة والنوابغ وأرباب الفنون؟ هل أفلحوا في قيادة القطيع؟ هل أمكنهم أن يشقوا له طريقاً أقوم مما رسمته الطبيعة بحكم الضرورة؟ ان هاته الطليعة مكونة من «حفنة من المشرعين والفلاسفة والعلماء والشعراء» ولكنها حفنة تُرك أثرها الخالد الذي لا يمحى، ولكن بقي مجال كبير للتفكير، هل هؤلاء الخالدون جعلوا من ذلك التقطيع الذي يمارس الحياة، هل جعلوا منهُ شيئاً آخر يرتفع بالحياة ويعيشها كفنٍّ، لا كمجموعة رتيبة لا تتبدل من التقاليد والعادات؟

أقول كفنٍّ فارجعه كما بدأت الى كلة طولها وعرضها يسمان هذه الاكوان جميعاً! الفن... لقد حاضرت عن الفن في الجامعة [1] وقلت إذ ذاك ان الفكرة هي الجمال مستقرٌّ، والفن اخراج ذلك الجمال المستقر الى حيز الوجود اي اني قرنت الفن بالجمال

غير اني عدت فراجعت نفسي وراجعت كتبي. واخذت احدد علاقة الفن لا بالجمال بل بالحياة. فان ذلك أنفع وأجدى والانسان دائماً في حاجة إلى الخروج من دائرة تعاريفه لكي يوسع آفاقه ويخلص الى عوالم جديدة: وهذا دأبي دائماً. وقد تعلمته من فلسفة كيرلنج في كتابه «فن الحياة»! فصرت أراجع أحب التعاريف اليّ. وأناقش أصح الآراء بنفسي وأقربها الى قلبي. فأخذت على مهل أرى ما كان يعنيني عنهُ تقيدي بآراء كنت أتحيز لها ولا أحيد عنها! وذلك ما صنعته بموضوع الفن [2]. والواقع اني انتهيت الى رأي خاص

(١) راجع مقتطف ابريل ١٩٤١ صفحة ٣٩١ (الفن للمجتمع)
(٢) الجمال هو الفكرة مستقرة، والفن إخراج ذلك الجمال الى حيز الوجود

وقد رأيت في ما راجعت من الكتب الحديثة التي تكلمت عن العلاقة بين العلم والفن موافقة تامة للرأي الذي انتهيت اليه وهو الذي سأشرحهُ لكم الآن وستجدون فيه كثيراً من الصواب والمنفعة وان كانت المنفعة آخر ما يعنى به الفن حتى قال شوبنهاور « ان الفن شيء لا يراد به النفع وهذا سرّ عظمته . »

ان التفكير يبدأ بأن نعلم (Conation) ثم ينتهي بأن نعمل. وكذلك العلم بحكمته تدل علينا — اننا نعلم — اننا بواسطة العلم (Science) نعرف الحقائق فاذا أخذنا « نخلق » على ذلك العلم شيئاً فهذا هو الفن أي ان الفن ، هو العملُ والخلْق في اقتران وهذه المدنية هي خلاصة الفنون جميعاً أقصد بالمدنية الجانب المشيد المجسد منها لا الجانب الروحي فذلك في افلاس . ولماذا هو في افلاس ؟

قرأت كتاباً من أخطر الكتب يدعى العقل في التكوين The Mind in the Making لكاتب اميركي اسمهُ Robinson قال عنهُ وبلز انهُ أهم من مؤتمرات العالم وزعماء الدنيا جميعاً وهو هذا الكتاب تحليل لعلل العالم وارجاعها الى اسبابها . ورأيه يتفق مع ما قلته من ان العالم يسير في طريقين . أو هو محكوم بقوتين . التقاليد والغرائز في ناحية ، والعقل او التفكير في ناحية أخرى . وبعبارة اخرى قوة تحكم التقطيع . وقوة أخرى تفكر له . القوة الاولى نسميها قوة التقاليد أو الخلْق والثانية قوة العقل الخالق

القوة الاولى تتحكم في القطيع ولا تبارحهُ بل هي تقيدهُ وتكبلهُ . وهو نفسه يجعل لتقيد قداسة وتكبيل حرمة . ولقد وقف من هذا الامر موقف آبائه واجداده لم يتغير ولم يتبدل اي بقي عند حجته الاولى . هو هو ذلك الرجل البدائي وان كان قد اكتسى حسن الثياب وسكن أفخم الدور ، وبدا رائع المظهر تحت طلاء من الاكاذيب المقررة وقناع من الآداب التوارثة المصطلح عليها . وقد انغمس في ذلك المستنقع انغماساً تامًّا . وأبى ان يخرج منهُ أو يمد يده الى الذي يحاول ان يخرجهُ . هذا في ناحية — اما في الناحية الاخرى فعندنا مادة العالم من فنانين وزعماء وعباقرة . هؤلاء يتميزون عن القطيع بشيء واحد انهم رفضوا ان ينغمسوا في ذلك المستنقع وحطموا القيود وبدل ان يمرّوا بالصور وفي أيديهم مصباح ياهت صاحب عمروها بنور الشمس فظهر معناها رائعاً واضحاً . ثم رفضوا ان يقفوا عندما قرر أسلافهم الوقوف عنده وكذلك رفضوا ان يغرقوا في ذاتيتهم وأن يظلوا في الدائرة الضيقة المحصورة من نفوسهم . اي انهم خرجوا من الخاص الى العام الشامل ، تحرروا من قيود الذات ليفهموا الموضوع وان كان تحررهم من تلك القيود لم يمح تلك الذاتية . . . ذلك طابع الفلاسفة والمفكرين والعباقرة من أول التاريخ . ولقد أصاب كيسر لنج في قوله انهُ لا فلسفة ولا شعر

ولا فن بدون هذه الذاتية القوية أولاً . ثم خروج الى الموضوعية ثانياً . أي ان الفنان او العالم اوالشاعر او العبقري يجب ان يأخذ من داخله ليفسر الاسباب بين الداخل وبين العالم الخارجي الكبير . ان هذا الخروج من الذات هو أول وسائل الامتزاج والفهم والكشف . وبهذا صارت الحقائق العلمية تكشف واحدة بعد أخرى — يكشفها العلم — ثم يسلمها للفن فيتناول تلك الحقائق فما يزال يجري عليها خياله وعبقريته حتى يجيء منها مزيج جديد. مخلوق، سمه كما شئت ، هو ذلك المخترع الذي هو حيناً بالراديو وحيناً آخر طيارة وهكذا . . . هذه الناحية من التقدم الفني ولا أقول العلمي في نجاح مطرد . . . وسيظل ذلك النجاح مطرداً ، كما سيظل وقوف الانسان في ناحية الهمجية البدائية ثابتاً

والنتيجة ان تختلف القوتان المسيطرتان، هذه جامدة كالقالب الذي ركب وانتهى. والثانية تتبدل وتتشكل وتتجدد وبذلك تتقدم . والخلاصة ان البدائي الهمجي المطلي بالاكاذيب يسلحه العلماء ويكسوه المخترعون وهو لم يستعد بعد لذلك أقل استعداد . ولا أخذ لذلك أقل أهبة فيسيء استعمال ما سلّح به . وماذلك الخراب والدمار الذي ترونهُ إلاّ النتيجة الحتمية للفرق بين قوتين — اخلاقية وقفت جامدة صماء — وأخرى علمية فنية تثب وثباً الى الامام

هذا رأي روبلسون وهو رأي رائع جليل . غير ان العلاج عسير جداً . وخلاصتهُ ان يجيء قومٌ من هؤلاء القادة ويكونوا مستعدين لمحاربة ما اصطلحت عليه الاجيال جيلاً من ناحية الآداب والاخلاق فيفكرون فيها تفكيراً جديداً يستعرضونها كما يستعرضون الحقائق العلمية على ضوء آراء غير متحيزة لاحد ولا لشيء . ثم يبشرون بآرائهم ويكافحون في سبيل نشرها. نرد على روبلسون قائلين : وهل هؤلاء القادة لم يجيئوا في التاريخ ؟ ما رأيك في هذا الرسول وذاك وفي هذا المصلح الذي اضطهد وذاك الذي قتل ؟

يجيب — ويجيب معه وتز — نحن في حاجة الى ما يسمى بالانجليزية Team work — أي عمل اجتماعي — جهد عالمي مشترك يتنازل عن العصبيات والقوميات .... وأين هو ؟؟؟

خلاصة هذا القول إن الفن قوة ديناميكية — قوة خلاّقة مبدعة وقد أبدى شوبنهاور هذا الرأي قائلاً : ان الفنان يتزوج موضوعه ليولّد من ذلك الزواج عملاً فنياً . فاذا أردنا ان نصف الفن — قلنا هو القوة الخالقة ...

وفن الحياة اذن هو القوة التي تخرج من الحياة ثمرة ومن تجاربها شيئاً نفيساً أي ان فن الحياة هو ذلك الفن الذي يأخذ بيدنا الى آفاق غير منظورة وتجارب غير معروفة فينشىء لنا أو يبدع من تلك التجارب والآفاق شيئاً حقيقياً ملموساً نابضاً بالحياة والخير ....

ألمح سؤالاً يتردد على شفاهكم جميعاً. أليس أفراد القطيع متشابهين؟ أليسوا آدميين؟ وهؤلاء

القادة والزعماء، أليسوا كذلك آدميين؟ فما الذي يغير هذا عن ذلك؟ ولماذا تقول ان أفراد القطيع يمارسون الحياة كحياة غشيمة خفة. وأما الآخرون فيمارسون الحياة فنًّا وفيما سامياً؟

يقتضي الرد على هذا السؤال بعض الالمام بمبادىء سيكولوجية مقررة. يجب ايها المتسائل ان تعرف ما هو التفكير الانساني وكيف يعمل وإلى أي صنف من الناس ينتمي هذا او ذاك. ان التفكير الانساني بإيجاز مجموعة من الغرائز المكدسة والكفايات والمواهب الموروثة تنمو في وسطها شجرة هي شجرة الذات او الـ Ego وهذه الشجرة انانية بطبيعتها ونحن على تعبير أدلر egocentric اي مركز حول الذات، وان الطفل ليضع كل شيء في فمه ويكاد يلتهم العالم كله لو استطاع وليست الدنية والثقافة الا وسائل تكبح ذلك التركيز على صالح الذات. والواقع ان مقياس الفضيلة في نظري هو مقدار ما نستطيع ان نكبح من هذا الانصراف الى الذات. نحن لا نستطيع — ولا يجوز لنا — ان نقتل ذلك الحرص على الذات فهو أس الحياة والعمران ولكن الانصباب على الذات، هو أس كل ضعف وكل شقاء وهو آفة ذلك القطيع الذي حدثتكم عنه. ويكفيكم ان تنظروا الى حيوان كالحمار. ان له اشراقة طوية معناها انصبابه على نفسه وهو لا يفيق الا حين يدعوه داعٍ كالأكل والشرب وهو لا يعبأ بالحمار الذي يجاوره ولا يهمه الا مطالبه الخاصة، الا حاجاته البدائية من غذاء وتناسل

أغلب الناس ايها السادة يمارسون الحياة على طريقة الحيوان. حياتهم انصباب تام على ما يخص نفوسهم. وقد يعيش الانسان في دائرة من عالمه الخاص ولا يرى الا بمقدار ما يحتاج اليه عالمه الخاص من الزاوية ولا يتحرك الا بمقدار ما يحتاج اليه عالمه الضيق، معاشرته لغيره مبنية على المنفعة الخاصة، حركاته جميعاً، تدفعها اليها ذاته المسيطرة عليه. وقد كتب برتراند رسل كتاباً ضخماً عن السعادة فأرجع كل اسباب الشقاء الى هذا الانصباب وأضيف أنا الى ذلك الانصباب على المنفعة

والفرق بين العبقريين وهؤلاء الافراد من القطيع هو ان العبقريين ينسون ذواتهم ولا يبالون بمنفعة خاصة. وكل تفكيرهم إنما يأتي عرضاً. ولذلك يكون أوقع وأسمى وأعم. ما من عبقري ولا فنان نظر الى المنفعة الذاتية وانما انصرفت عبقريته أو فنه الى غرض كبير ينصب على درسه وفهمه فتأتي المنفعة رائعة جليلة وخالدة على الأيام. وقد كتب موروى كتابه عن فن الحياة فقسمه الى فنون منها فن التفكير ومنها فن الحب ومنها فن العمل ومنها فن الشيب

وأنا أراها كلها فنًّا واحداً. وان تفرعت وتعددت الصور. وهذا الفن الواحد قائم على شيئين. العلاقة بين الفرد والوسط وعلى سيكولوجية الفرد بعينه. أما العلاقة بين الفرد والوسط فقد أفرد لها علماء النفس فصولاً طويلة منها ما كتبه هافيلوك أليس في كتابه الاخلاق والناس Men & Manners وما كتبه كيسرلنج عن العلاقة بين الفرد والنوع

وهذه العلاقة بين الفرد والنوع او بين الفرد والوسط هي بعينها مسألة الخروج من دائرة النفس وهي بعينها قضية الحب — فما الحب الا علاقة قوية بين اثنين على انها قضية لا يفصل فيها غير سيكولوجية الفرد وطرائق تفكيره ، وطرائق التفكير محكومة بالوراثة وبالتربية . والوراثة عنصر هام جداً لا يصح ان نغفله من حسابنا ونحن نرث الذكاء ونرث استعدادات خاصة واتجاهات نحو هذا الشيء او ذاك . يرث أحدنا بنية مستعدة لهذا المرض او ذاك . وأما التربية فكسح لجماح الغرائز وبخاصة غريزة التركيز على الذات وليست بأي حال قتلاً لطاقيك الغريزة التي لا يمكن ان تموت . والتربية ايضاً تدعو الناس الى فهم الغرض من التربية وهو سلامة التفكير — وكل الكتب التي كتبت عن فن التفكير كدمنت وشافتسبري وغيرهما نصت أولاً على ان التفكير السليم هو التفكير المرن المستعد لقبول اشياء جديدة والتطلع الى آفاق مرتقبة وان الانسان ليحار في بساطة العبقري اذ يراه كالطفل يجد في كل شيء عجباً وفي كل مسألة ألف وجه . ونصت ايضاً هاته الكتب على ان التفكير يجب ان يؤدي الى العمل والى الاثمار . ان جيته كان يدعو التفكير العقيم — النشاط الفاقد الصفة — وكان يشبه ذلك التفكر العقيم « بالنحلة » التي يضربها الصبية في الطريق فتدور وتدور ثم تقع مفلسة . ولكي يكون التفكير مثمراً يقول موروى في كتابه انه يجب ان يحدد الهدف على شرط ان لا يكون الهدف اسعاد انفسنا وعلى شرط ان لا يكون قائماً على مصالحنا الشخصية . ويقول ان الانسان مثله في هذه الدنيا يشبه السبّاح على وجه الماء كلما كثرت متقلاته كلما غاص الى قعر الماء وكلما صعب عليه ان يسبح الى الشاطىء . فمن الشجاعة ان نقطع ما يعوق تفكيرنا وينقله ولو فكر الواحد منا لوجد ان تلك المثقلات اليومية صغيرة وكثيرة بحيث ان أكثرنا يقيد بها وتمنعه عن أي جهد كبير

أما فنّ الحب ، — فيجب أن يقوم على فهم ما هو الحب — فتعريف الحب هو أنهُ « نصف يبحث عن نصفه الضائع » . . . أي أنهُ بحثٌ ونصَبٌ خلف عزيز مفقود . نصبٌ يتطلب التضحية ، وأكثر الناس يفهمون من الحب أنهُ أخذٌ بغير إعطاء فيعصرون الذين يحبونهم اعتصاراً ، وأساس هذا الإنانية ، وأعود فأكرر كما قلت أولاً أنهُ الانصباب على النفس ومحاولة اعطائها كلّ شيء وريها من ماء حياة الآخرين حتى ينضب ينابيعهم

الآن ، قد ذكرت لحضراتكم ما هي الحياة وما هو الفن وبينت لحضراتكم كيف تكون الحياة فناً ، وبينت آفة القطيع الآدمي ، ألا وهي الانصباب على الذات بغير تفكير في الآخرين ، وبينت لحضراتكم أساس الصداقات والمحبات ، وهو تكران الذات

وبينت لحضراتكم علة فساد العالم ألا وهو بقاء الاخلاق في قوالب جامدة مع تطور العلم والفن تطوراً سريعاً ، ولعلي اذ وصفت الداء قد وصفتُ الدواء لذلك

اقوال تؤثر

١

١ — اذا المرء أفشى سره بلسانه ولام عليه غيره فهو أحمق
اذا ساق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذي يستودع السر أضيق
الاحنف بن قيس

٢ — من ظلم نفسهُ كان لغيره أظلم . ومن هدم دينهُ كان لمجده أهدم

٣ — أريد رجلاً اذا كان في القوم وهو أميرهم كان كبعضهم . واذا لم يكن أميرهم فكأنهُ أميرهم الامام عمر

٤ — قال سقراط ان الطالح يحيا ليأكل ويشرب والصالح يأكل ويشرب ليحيا

٥ — قيل لديوجانس هل صمتَّ لانك أحمق أو لانك حُصِرت عن الكلام فأجاب ان الأحمق لا يصمت

٦ — قال سقراط انهُ ليس اثينيًّا ولا يونانيًّا ولكنه من أهل العالم

٧ — قال كاتون أفضل ان يقول الناس لماذا لم ينصب لهُ تمثال على أن يقولوا لماذا نصب لهُ

٨ — سئل طاليس ما أصعب شيء فقال ان يعرف المرء نفسه وسئل ما اسهل شيء فقال ان ينصح لغيره

٩ — كان سقراط يقول اقل الناس حاجات أقربهم الى الآلهة

١٠ — سئل حكيم عن رجل غنيٍّ بخيل فقال انهُ لا يملك امواله ولكن أمواله تملكه

١١ — قيل لارسطوطاليس ما أفدت من الفلسفة فقال ان أفعل غير مأمور ما يفعله غيري خوفاً من القانون

١٢ — دخل ديوجنيس الحكيم مكاناً قذراً فقيل لهُ في ذلك فقال ان الشمس تدخل الاماكن القذرة ولا تتنجس

علم النفس

وأثره في الصناعة الحربية

للاستاذ سي ، بي ، فريزبي[1]

نقلها الى العربية : حسن السلمان

يختلف هذا البحث عما تقدمه من الابحاث . تلك تناولت القواعد النظرية لعلم النفس الحديث ، بينما تختص هذا بشرح الناحية العملية الاقتصادية منه . ولهذا سميت هذه الناحية من علم النفس بعلم النفس المهني أو علم النفس الصناعي وهي وإن كانت حديثة التكوين وتاريخها لا يزيد على بضع سنين ، ذات تأثير عظيم جداً في تطور الانتاج الصناعي

تصوير تاريخي

قطع علم النفس أو علم العقل والسلوك خلال الخمسين السنة الماضية شوطاً بعيداً في مضمار التقدم والتطور وكان قبل ذلك لا يختلف عن الفلسفة اختلافاً بيناً فكلاهما بحث عن تعليل مظاهر الحياة العقلية تعليلاً غيبيًّا . فلما ترك الباحثون النفسيون اساليبهم القديمة العقيمة واتبعوا نهجاً تجريبيًّا في البحث تطورت علومنا النفسية تطوراً سريعاً حتى أصبح السيكولوجي المعاصر لا يكتفي بدراسة نواحي التفكير وبابتكار النظريات الخاصة بعمل العقل بل يحاول دائماً توسيع أفق معارفه بالركون الى التجارب العلمية التي تضع حدًّا لكل حدس أو تخمين . ولم يقتصر عمله في مختبره على دراسة المظاهر العقلية وحدها بل تعداها الى دراسة المظاهر الفسيولوجية التي تلازمها وتصاحبها وتكون في منزلة المرآة العاكسة لصورها. فكان من نتائج ذلك ان استخدمت القواعد السيكولوجية لدراسة فعاليات مختلف نواحي الحياة العملية. وكان لزاماً على الباحث ترك مختبره الذي كان يلجأ اليه كلما اراد الاستسلام الى التفكير والاستبطان متجهاً نحو المختبر والى التجارب العلمية . فعمَّ انتاجه البيت والمدرسة ونفذت مبتكراته الى المستشفى والمعمل

ان علم النفس علم عملي حريٌّ بأن يدعى بعلم النفس المهني ، ذلكم لأن الباحث فيه

(١) C. B. Frisby سكرتير المؤسسة الوطنية لعلم النفس الصناعي

لا يقتصر انتاجه العلمي على الصناعة وحدها ولا يشمل ميدان عمله الصانع دون غيرها بل يضم اليه المخازن التجارية بأنواعها المختلفة والحوانيت بأشكالها المتباينة ودور التمثيل كبيرها وصغيرها وجميع ما له علاقة بالمستخدمين والمستخدَمين

ويرجع تاريخ علم النفس الصناعي في بريطانيا الى سنوات الحرب العالمية الماضية عندما تشكلت « جمعية صحة عمال العتاد » [١] وأخذت تتحرى البحث عن ساعات العمل والوقت الضائع وما يصيب العمال من مرض ومن أضرار جسيمة وغير هذه من الأمور المختصة بصحة المستخدمين وبسلامتهم . ولسبب من الأسباب المجلت هذه الجمعية في عام ١٩١٨ وتشكلت بدلها « لجنة البحث عن التعب الصناعي » [٢] من بين اعضاء « مجلس البحث الطبي » [٣] فتغير مجرى اهدافها واتجه الى البحث عن علاقة ساعات العمل وأساليبه بالتعب الذي يقاسيه العمال من جراء كثرة ضغط العمل عليهم ، مراعياً في ذلك الكفاءة الصناعية للعمال وأساليب تحسن صحتهم . وفي عام ١٩٢٩ اتخذت هذه اللجنة لنفسها اسم « لجنة البحث عن الصحة الصناعية » [٤] لأنها اعتزمت تغيير وجهة مهمتها وتوسيع ميدان عملها حتى شملت جهودها جميع المشكلات الناشئة عن نقص الجدارة المهنية . ولقد تأسست قبل ذلك التاريخ اي في عام ١٩٢١ مؤسسة أهلية لدراسة المشكلات النفسية الصناعية بعيدة عن تأثيرات السلطة الحكومية سميت « المؤسسة الوطنية لعلم النفس الصناعي » [٥] . ويرجع الفضل في ظهور هذه المؤسسة الى جهود كل من الدكتور مايرز [٦] مدير المختبر السيكولوجي بجامعة كمبردج يوم ذاك والمستر ويلش [٧] احد المشتغلين معه في ذلك المختبر . ولقد نمت هذه المؤسسة بفضل كفاح ذينك الرائدين حتى عمت أبحاثها جميع المشكلات الصناعية المهنية

وفي الولايات المتحدة الأميركية قامت « الهيئة السيكولوجية » [٨] بالاشتراك مع « اتحاد جماعة البحث » [٩] بأبحاث على غاية من عظم الشأن وذات علاقة واسعة بمختلف شؤون العمال . الا ان أسباب تقدم علم النفس الصناعي في هذا القطر تعزى الى جهود اساتذة الجامعات وكفاح القائمين على شؤون الجمعيات الصناعية ، نخص بالذكر منهم مونستر برغ [١٠] وبنجهام [١١] ولنك [١٢] الذين وجهوا جل جهودهم الى دراسة الجدارة المهنية والى وضع مقاييس ثابتة لانتخاب العمال . ولقد قام السيكولوجيون في المانيا بنصيبهم في إحياء الحياة الصناعية بعد ما منيت به من شلل خلال

---

(١) Industrial Fatigue (٢) Health of Munition Worker Commiittee
(٣) Research Board (٤) Medical Research Council
(٥) Research Board National Institute of Industrial Psychology
(٦) Dr. C. S. Myers (٧) Mr H. J. Welch (٨) Psychological Corporation
(٩) Bingham (١٠) Munsterberg (١١) Personnel Research Federation
(١٢) Link

سنوات الحرب العالمية الماضية . ففي عام ١٩٣٢ بلغ عدد الشركات التي أسست لنفسها مختبرات سيكولوجية نيفاً وعشرين شركة ، كما ان الحكومة الالمانية يوم ذاك لم تألُ جهداً لتأسيس عدد ليس بقليل من هذه المختبرات في مختلف المناطق الصناعية من البلاد . وفي روسيا لاقى علم النفس الصناعي اهتماماً عظيماً من الحكومة السوفيتية . فأسست عدداً كبيراً من المختبرات السيكولوجية التي تعد بلا شك من أغنى امثال تلك المختبرات بتجهيزاتها وأوفرها نصيباً بعدد المشتغلين بها من الباحثين النفسيين . ولسنا بمغالين اذا ما قلنا ان جل البلاد الاوربية اهتمت الاهتمام اللازم بهذه الناحية من علم النفس ، ولكننا لا نجد متسعاً في هذا البحث المقتضب لذكر جميع المشتغلين بهذا الميدان والذين اقاموا علم النفس الصناعي على دعائم ثابتة

اهداف علم النفس الصناعي

ان اول الاهداف التي يستهدفها علم النفس الصناعي تعميم السعادة الانسانية بين مختلف طبقات العمال وأصحاب المهن . ومن الطبيعي ان ذلك لا يتم الا بالبحث للتوفيق بين مؤهلات ممتهني المهن وأمزجتهم وبين نوع الحرف التي يحترفونها . وبالبحث لاصلاح الظروف التي يتم بها العمل ولتقليل المصاعب الناشئة عن ضغط الاعمال على العمال ايضاً . ومما لا ريب فيه أن العامل الذي وهبتهُ الطبيعة المؤهلات اللازمة للعمل والمزاج الملائم لمقتضياته والذي يقوم بعمله في مكان توافرت فيه جميع شروط الاضاءة الجيدة والتهوية الكافية وجميع أسباب الراحة والذي توطدت علاقته برفاقه من العمال وبرؤسائه فأحبهم وأحبوه،هو عامل اكثر اطمئناناً وأبلغ سعادة وأحكم كفاءة من غيره من العمال . واذا ما ساءت العوامل النفسية وغير النفسية المحيطة بالعامل ضاعت جميع محاولاته الجسمية والنفسية وتبددت جهوده العقلية سدىً وقد وجد الباحثون النفسيون ان اصلاح تلك الظروف ينمي تلك الجهود ويعزز من تلك المحاولات ويجعل العمال يتجهون في اعمالهم وجهة منتجة فيتضاعف الانتاج ويجود نوعهُ ويجبي العمال في اطمئنان وفي سعة في العيش

ولم تؤد تلك الاصلاحات الى مضاعفة الانتاج وجودة النوع فحسب ، بل قللت من تغيب العمال عن العمل ومن تمارضهم وخلصتهم من كثير من الامراض التي تنتابهم،وأبعدت عنهم الحوادث الفجائية التي كثيراً ما أزهقت أرواحهم فرملت أزواجهم ويتمت اولادهم ، وحسنت من علاقة العمال بأصحاب الاعمال فقلت الاختلافات وتلاقت الاضرار الناجمة عن تلك الاختلافات

ولم يقتصر علم النفس الصناعي على الاهداف المارة الذكر . فميدان عمله الواسع يشمل جميع نواحي الحياة المهنية حتى ان قسماً منهُ اختص بالبحث عن اجور العمال بالنسبة لنوع العمل الملائم لمؤهلاتهم الموافق لامزجتهم . فليست مؤهلات جميع العمال واحدة وليست أمزجتهم

متباينة ومتى ان توحدت الاختلافات بين الامزجة والمؤهلات احتلت الفروق الفردية بين العمال محلاً ظاهراً في علم النفس الصناعي

ان تحليل مختلف المهن تحليلاً سيكولوجياً هو ولا ريب اولى مراحل القيادة المهنية الناجحة والانتخاب المهني العائب . وبغير ذلك يعسر على المهيمين على شؤون العمال أن يقودوا عمالهم ويسيّروا اتباعهم ويوجهوهم بحسب ما تدعو مصلحة العمل | ونقصد بالقيادة المهنية تقدير القابليات الكامنة للافراد ومعرفة صفات أمزجتهم والاطلاع على ما اكتسبوا من معارف ومن تثقيف . وبذلك يتسنى للقائمين على شؤون العمال أن يصوروا لأنفسهم صورة جلية عن اولئك العمال ، تمكنهم من المقارنة بين مؤهلاتهم وبين مقتضيات المهن التي ستسند اليهم . اما انتخاب المهن فنعني به قياس درجة حصول العامل على بعض الصفات والمؤهلات التي تمكنه من القيام بمهام المهنة الخاصة التي ستوكل اليه خير قيام

وتقاس مؤهلات العمال باختبارات خاصة ابتكرت لتلك الغاية . فتعيين قابلية القيادة بين العمال تتبع اختبارات تصور قابليات المتحنين العامة احسن تصوير . اما في الانتخاب المهني فيتبع نوع آخر من الاختبارات التي تكشف الستار عن قابليات العمال الخاصة التي يقتضيها نوع العمل الذي سيوكل أمره اليهم . ولدينا شواهد ليست بقليلة العدد تدل على ما لاتباع الاساليب السيكولوجية من شأن في تعيين قابلية القيادة المهنية وفي الانتخاب المهني أيضاً

فقد دلت الابحاث الدقيقة التي اجرتها « المؤسسة الوطنية لعلم النفس الصناعي » ان نسبة عدد الناجحين في أعمالهم من الذين اتبعوا استشاراتها من الاولاد والبنات كانت ٩٣٫٣ ٪ منهم . أما الذين أهملوا نصحها وأعرضوا عن ارشادها فكانت نسبة الناجحين منهم ٥٣٫٩ ٪ فقط

وتتضح أهمية الاساليب السيكولوجية لاختيار العمال من مقارنة النجاح الذي أصابه العمال الذين تمّ اختيارهم بحسبها ، بالنجاح الذي أصابه أولئك الذين اختيروا بغيرها من الاساليب . فقد تمّ انتخاب ٧٠ ٪ من عمال أحد المصانع بالاستعانة بالاختبارات السيكولوجية وانتخب ٣٠ ٪ منهم بأساليب قديمة لا علاقة لها بالبحث النفسي . وبعد مدة وجيزة فصل ست وثلاثون من عمال ذلك المصنع إما لقلة كفاءتهم وإما لثبوت عجزهم عن العمل . ولدى التدقيق اتضح ان سبعة من العمال المتصولين ، أي ١٩٫٥ ٪ منهم ، كانوا من الذين تمّ اختيارهم بالطرق السيكولوجية الحديثة ، وأما الباقون وعددهم ٢٩ عاملاً ، أي ٨٠٫٥ ٪ منهم فكانوا من الفئة التي تهاون أصحاب المصانع في أمر اختيارها

ويمكن ان يعين مقدار نجاح العمال في مهنهم بجمع الدقيق من الاحصاءات عن الغلطات التي يرتكبونها ، وعن أيام مرضهم وعن الزمن الذي يبددونه بلا جدوى وعن عدد الحوادث

الفجائية التي تهدد حياتهم من حين لآخر . وقد دلت أمثال هذه الاحصاءات على أن العمال الذين تمّ اختبارهم بأتباع اختبارات قياس المقدرة وقابلية النجاح هم أثبت العمال على العمل وأقلهم تعرضاً لتلك العوامل الخافضة للانتاج المسببة لكثرة الاضرار . كما أنها أثبتت كثرة حدوث تلك العوامل كلما ازداد انتخاب العمال سوءاً وقل الاهتمام بالاختبارات السيكولوجية

والتدريب المنظم أمر أساسي لمن ينشد سرعة العمل والاتقان فيه. فانتباه العمال المستجدين لما يقوم به زملاءهم الأقدمون ، واسترشادهم بنصح اللاحظين او من يشرف على أعمالهم يدعو الى بطء تعلمهم أسرار الحرف التي سيحترفونها ولقلة حذقهم اياها ، ولاجتنابهم الغلطات التي اعتاد الآخرون ارتكابها . وهناك نواميس سيكولوجية يؤدي اتباعها الى سرعة تعلم العمال مهنهم ، ولاتقانها كلّ الاتقان . وقد أثبتت التجارب ان تدريب من استجدّ من عمال أحد مصانع الشيكولاتا تدريباً منظماً انقص زمن بلوغ الكفاءة العليا في المهنة من ثمانية عشر شهراً الى ثلاثة أشهر ونصف شهر فقط

العوامل المؤثرة في بيئة العمال

ومما أيدته النتائج ان بيئة العمال ذات تأثير بعيد المدى في صحة العمال وسعادتهم وفي كفاءتهم العملية . وأولى القضايا المتعلقة بمحيط العمال التي عالجها السيكولوجيون في أبحاثهم مشكلة الاستضاءة . ولهذه المشكلة ثلاث نواحٍ مهمة : كثافة الاضاءة ونوعيتها وشدة وهجها . فالاستضاءة الرديئة تؤثر في أعصاب العين وتعرض العمال لاجهاد عصبي كبير ولمختلف أمراض العيون . وإذا ما أصلح من أمر الاستضاءة زاد الانتاج زيادة لا تقل عن ٢٥ ٪ وقد تعرض العمال للاخطاء ولارتكاب كل ما من شأنه ان يلحق اضراراً في العمل والمعمل . وشبيهة تأثيرات التدفئة المضطربة والتهوية غير الكاملة ، بتأثير الاستضاءة . فما وجد ان رفع درجة الحرارة في أحد مناجم الفحم سبعة درجات فرنهايت ضاعف عدد المرضى من العمال بنسبة ٧٤٪ ولوحظ أيضاً ان اعتدال درجة حرارة الهواء في المعامل والمناجم ذو تأثير نفسي عظيم في العمال خاصة وان الهواء المحيط بأجسامهم ، الخالي مما تعلق به من مواد عضوية او كيميائية ، أشد مفعولاً من الهواء الذي يستنشقونه . والحقيقة ان التهوية والتدفئة من الأمور المهمة التي تبعث الراحة والاطمئنان في نفوس العمال وان اختلاف نوع العمل يقتضي تغييراً في كل من هذين العاملين . وقد لاقى الصوت ، وهو من أركان بيئة العمال المادية، عناية فائقة من الباحثين . فقد دلت تجارب « لجنة البحث عن الصحة الصناعية » على ان صحة العمال في مصنع من مصانع الحياكة تحسنت تحسناً ظاهراً بعدما استعمل العمال صمامات أذنية تقيهم شرّ الأصوات المزعجة المتولدة من احتكاك الآلات

ولم يهمل النفسيون البحث عن الزمن الذي يتطلبهُ انجاز عمل من الاعمال ، وعن الحركات التي يأتيها العمال عند ما ينتقلون من موضع الى آخر او عند ما يتناولون المواد التي يتداولونها في اعمالهم . وقد ظهر من بحثهم هذا مبلغ علاقة الاختلافات الفردية بين العمال بأساليب عملهم وتباينهم كما أنها أثبتت بطلان القول القديم بوجود سبيل واحد فقط يؤدي الى إنجاز عمل واحد انجازاً كاملاً . فثمة أصول متعددة تتبع لانجاز الاعمال وللحصول على أطيب النتائج . واختيار الاصول الملائمة للشخص من الامور التي تكشف عن خلقه وفطرته المنطبعين في شخصيته

كذلك توصلوا من دراستهم لزمن العمل ولحركات العمال، الى معرفة تلك الاصول الاساسية وأثبتوا امكان التخلص من كثير من الحركات المضنية غير المجدية ، ومن تبديد الجهود التي لا طائل وراءها بتدريب العمال تدريباً دقيقاً وباتباعهم لتلك الاصول . فقد تؤدي قلة العناية بأمر ترتيب المواد على مقاعد العمل الى اضطرار العمال للقيام بعدد من الحركات المتعبة المضنية كما ان ثقل الآلات وعدم العناية بأمر وضعها كثيراً ما يسبب تبديد جهود لا داعي له

ويتضح مما تقدم أن السيكولوجي يهتم بكثير من الامور التي يحسبها أصحاب العامل ومراقبو الاعمال وحتى العمال أنفسهم تافهة لا تستحق العناية والاهتمام . وذلك لأنهُ يدرك من تجاربه أن تلك الامور التافهة ذات أثر فعال في مقدار الانتاج وفي نوعهِ وتستنفد جزءًا لا يستهان بهِ من الفعاليات التي يضطر لصرفها العامل في عمله اليومي

أما التعب فمن الامور التي يتعذر على الباحث قياسها قياساً مباشراً خاصة وان الجهاز الذي ابتدعه دوجلاس وهولدين [1] لا يجدي نفعاً في قياس ما يتطلبهُ العمل من جهد فسيولوجي. وتدل الاقيسة الذاتية المستمدة مما صرح به العمال المتقدمين في المهنة على ان تزايد سرعة العمل المتأتية من تزايد سهولته تدعو الى توفير في الجهود التي يبذلها العمال لانجاز اعمالهم . ولدينا كثير من الشواهد التي تدعم هذا الزعم . فقد تزايد انتاج احد المناجم ١٥ ٪ بعد ما تدرَّب العمال على القيام بعملهم بسرعة وبسهولة تامتين . وتزايد انتاج احد مصانع السيكولاتا بنسبة ٣٦ ٪ بعد ما ابدلت مقاعد العاملات باخرى جديدة سهلت عليهم الحركة ومكنتهم من تناول ما يحتاجون اليهِ من المواد بدون كبير عناء

وقد عني السيكولوجيون بدراسة اساليب تنظيم العمل وعلاوة على دراستهم ما يتبعهُ العمال من طرق في أعمالهم . وتتألف عوامل تنظيم العمل مما يأتي : سعة المعمل ، ونوعيته ، ووسائط الانتقال بين اقسامه ، وساعات العمل ، ووحدة العمل . فلسعة المعمل ولوسائط الانتقال تأثير في ما ينهض بهِ العمال من اعمال . فضيق المعمل ورداءة الوسائط تمنع العمال عند ما يريدون

(١) Douglas—Hladane Apparatus

الانتقال من موضع الى آخر في داخل المعمل وتسبب لهم حوادث جانبية تلحق بهم اضراراً بالغة

اما مجموع ساعات العمل في الاسبوع الواحد فقد تناقص تناقصاً كبيراً خلال الاعوام العشرين الماضية نتيجة التجارب التي أثبتت ان الملل الذي يشعر به العمال من اثر طول الوقت يسبب انخفاض مستوى الانتاج. وقد اوضحت ذلك تمام التوضيح الدراسات الدقيقة التي قامت بها « جمعية صحة عمال العتاد » خلال أيام الحرب العالمية الماضية . ومما عني به البحاث أيضاً الاثر الذي تتركه فترات الاستراحة خلال ساعات العمل في نوع الانتاج وفي مقداره . فقد شوهد ان الانتاج يزيد زيادة تتفاوت بين ٥ ٪ و ٢٠ ٪ عند ما يسمح للعمال بالتمتع بفترات استراحة خلال مدة العمل

ومن أغرب ما استرعى نظر الباحثين النتائج التي توصلوا اليها بدراستهم «وحدة العمل» ونعني بوحدة العمل مقدار ما يستطيع العامل انجازه منه خلال مدة معينة . وقد ظهر مما قامت به « المؤسسة الوطنية لعلم النفس الصناعي» من دراسات تختص بأحد معامل الحريات ان انقاص كمية القواكه التي توضع أمام العاملات المكلفات تصنيفها أدى الى زيادة سرعة التصنيف وامضاعفة كميات ما يصنف منها دون ان تظهر على العاملات آثار التعب او الملل . كما انه شوهد ان كميات العمل في احد مصانع اللاسلكي تضاعفت وان الانتاج فيه ازداد زيادة كبيرة بعد ما جزئ العمل الذي كانت تقوم به العاملات اجزاء صغيرة . وعلى هذا فان كميات العمل ومقادير الانتاج ذات علاقة وثيقة بوحدة العمل

ومن العوامل المؤثرة في بيئة العمال السيكولوجية نظام اجور العمال ، ونظام ترقيتهم وطرق مراقبة العمال اثناء قيامهم بواجباتهم . ورب ما كان التنظيم العام في العمل أكثر هذه العوامل تأثيراً في بيئة العمال النفسية. فاذا ما حصل خلل في نظام ضبط الانتاج او في نظام حفظ المخازن تعرقلت مجاري العمل عن سيرها الطبيعي واذا ما نقصت مادة من المواد وعجز المصنع عن تحضير ما يحتاج اليه العمال من مواد أولية في الوقت المناسب توقف دولاب العمل مدة وتأخر العمال عن اتمام واجباتهم . وهذا ولا ريب ضرر في العمل لا يستهان به ، وضياع في المال وفي الجهود . فالارتباك في تنظيم العمل يدعو الى تبديد الجهود والى خلق العراقيل للعمال ولأصحاب العمل معاً

ويكاد يجمع الباحثون على ان نسبة اجور العمال وتقتهم بيقائهم في أعمالهم من البواعث الاساسية لتشجيع العمال ولكثرة اهتمامهم بواجبات عملهم . وان نفسي فلا ننسى الشعور بالفخر الذي كان يتملك أصحاب المهن اليدوية الاقدمين عند ما كانوا يحققون عملاً من الاعمال . ومما يؤسف له اننا لا نجد أثراً لهذا العامل المهم في مصانعنا الحديثة . ومع ذلك

في الامكان خلق الشعور بالتفوق وبالفخر في نفسيات عمالنا بمكافأة المتفوقين منهم على قدر ما ينتجه كل منهم من وحدات العمل خلال زمن معين . وفي الامكان التخلص من التأثير السيء عن القيام بعمل واحد مدة طويلة ، بتحريك نفوس العمال بحوافز خاصة بين حين وآخر وبذلك تزايد رغبة العمال قوة ويتضاعف انتباههم لشؤون عملهم شدة . فان احصاء الانتاج مثلاً خلال فترات العمل يبعث روح التسابق في نفوس جماعات العمال ويذكي رغبة التفوق في أفئدتهم

ومما لا ريب فيه ان مراقبة العمال اثناء قيامهم بأعمالهم أهم ما يؤثر في المحيط النفسي للعمال فالرقابة الرديئة تدعو الى شعور العمال بالبؤس والمرض وبالاضطراب النفسي وبعدم الاستقرار وبقلة الكفاءة . وقد اعتاد أهل الصناعة ترقية العمال المتفوقين في أعمالهم الى مصاف المراقبين الذين تعوزهم الدراية في المراقبة وتنقصهم الروح الطيبة في الارشاد او في النصح . والمراقبة الجيدة تتطلب أكثر من المهارة في العمل والدقة في الصنعة . فهي تتطلب معرفة العمال فرداً فرداً ومقدرة خاصة على مزج اللطف والشفقة بحب النظام . وهي ولا شك أهم حلقة من حلقات الرقابة في المصانع . وقد عني السيكولوجيون بدراسة تأثير الرقابة في صحة العمال وسعادتهم وكفاءتهم عناية كبيرة . فأثبتت التجارب التي أجراها إيلتون مايو بالولايات المتحدة على عدد كبير من العمال لمعرفة استجابتهم لنوعية الرقابة إن سوء الرقابة يدعو الى تفشي المرض بين العمال والى كثرة تغيبهم عن العمل والى ارتكابهم لكثير من الاخطاء والهفوات

وخلاصة القول ان الصناعة الحديثة متجهة بجميع نواحيها نحو الآلية المطلقة . وينشأ عن هذا الاتجاه تعقيد في مشكلات العمال وتزايد في المسؤوليات الملقاة على كواهلهم سواء أجسمية كانت تلك المسؤوليات أم نفسية . وكما ان الآلة خلصت العمال مما كانوا يقاسونه من تعب ومن استرقاق ، فانها خلقت لهم مشكلات كثيرة نتيجة للاستمرار في العمل المتكرر وفرضت عليهم استدامة تركيز انتباههم وسلبتهم قابلية الابتكار التي كانوا يتمتعون بها عندما كانوا يصنعون الاشياء بأيديهم . فاذا لم يكترث أصحاب المعامل لازالة التوتر العصبي من نفسيات عمالهم ، ساء حالهم وتردى عملهم . وليس بعسير على أصحاب الاعمال ملافاة تلك النقائص بحسن اختيارهم للعمال وباسناد الاعمال الى من له قابلية لها والى من له جلد على العمل المتواصل المتكرر ، وباستعمال وسائل تشجع العمال وتغريهم بمزاولة عملهم المتشابهة الماضية مدة طويلة . وبالسماح للعمال بمزاولة ضروب الرياضة والالعاب والاستماع لأنغام الموسيقى في فترات راحتهم التي يجب ان تتخلل ساعات العمل المتواصل . وعلى الصناعة الحديثة ان تركن الى السيكولوجي كلما نشأ اضطراب في العمل او نشب خلاف بين العمال وأصحاب الأعمال ، فهو وحده الذي يستطيع حل أمثال تلك المشكلات

اثر طاغور (١)

في ذهن كاتب انكليزي بعد مقابلته

[كتبت خاصة للمقتطف

— ١ —

ليس باليسير ان توصف العظمة حقّ وصفها :

يقف الانسان وقفة روعة وتهيّب أمام مشهد غروب الشمس او عنان جبل ذاهب في الفضاء او سهل فسيح يغمره الثلج . فاذا حاول ان يصف شعوره عجزت عن ذلك الألفاظ

هذا هو الشعور الذي يملك على الانسان عقله ونفسه في مجلس شخصية فذة . اننا نحسّ عماني القوة تنطلق منها حتى نكاد نلمسها فاذا حاولنا وصفها وتحليلها إنما بالخيبة . وكثيراً ما يكون هذا الشعور مقلقاً هدّاماً لكرامتنا النفسية اذ يجعلنا نحسّ بضعفنا وعجزنا . على انهُ يضرب حولنا ، احياناً ، نطاقاً من الطمأنينة والسلام ، ويبعث في نفوسنا شعوراً بالجليل وتقديراً للدنة ، اذ نحسّ بأن ضعفنا بالنا ما بلغ ازاء هذه الشخصية الطاغية علينا بقوتها ، لا يمنعنا عن السمو بعيوننا الى الاعالي

وعظمة السر رابندرانات طاغور ، الشاعر والمعلم والفيلسوف الهندي ، من هذا القبيل انك تشعر بكون الكون في مشيته الوقورة . انك ترى روعة الزمن وقد تجرّد من عنوه في خصلة الفضة وفي قسمات وجهه التي تحسبها منحوتة في العاج . انك تسمع موسيقى الاجرام في غنة صوته الموسيقي . انك تثق بأن الثقافة لا تعرف حدوداً من الوطن والجنس اذ تصغي الى حديثه الانكليزي الفصيح ، وتتملى من معرفته الوافية بأدب غير أدب قومه وفن غير فنهم وحضارة غريبة عن حضارتهم

— ٢ —

قال : كيف نستطيع ان نحكم على بيان عصرنا لمعرفة الآثار التي قد تنعم بنعمة الخلود ؟ ان بيان كل عصر هو نتيجة عوامل واحوال مهدت له السبيل في عصور سابقة ، وهو بدوره يمهد السبيل لبيان جديد في عصر تالٍ . فلا بد لنا من موضع للنظر المشارف لنستطيع الحكم على الانسان وأسلوبه في الافصاح عن نفسيته . والمسافة في الزمان والمكان

(١) ولد في ١٨٦١ وتوفي ٧ اغسطس ١٩٤١

لا مندوحة عنها لهذا الحكم لان القرب يحير البصر لكثرة ما يراه من الدقائق فيمتنع علينا النظر الشامل وتتعذر رؤية الكل كلاً لا أجزاءً متفرقة من كلٍّ

سألني كثيرون عن أحب الشعراء اليَّ وأيّ رجل أعظم الرجال في نظري . وانا لا نستطيع ان نحصر التفوق في شخصٍ واحدٍ لكثرة المتفوقين . تلقيت علومي في العصر الفكتوري فأنا أجيد لغته وأفهم أدبه ولكنني لا أستطيع ان أفهم تعبيرات الادباء المحدثين . قد تكون هذه التعبيرات غاية في الابداع وقد تنطوي على صفات تضمن لها الخلود كالصفات التي تمتاز بها أشعار شلي وكيتس [1] ولكنني لا أفهمها

ان لغة كل أمة كالأمة ذاتها . فاما ان تتقدم وإما ان تموت . انها لا تستطيع ان تجمد في مكانها . فالانكليز يتكلمون بلغة تشوسر [2] الآن . ولو أتيح لتشوسر ان يطلع على أسلوب الكتابة في العصر الاليصاباتي — عصر شكسبير وفرنسيس باكون — لحسبهُ وطانة محدثة . هكذا ينظر أدباء العصر الفكتوري الى أساليب الادب الحديثة

وفي لغة كل شعب تتردد أصداء الزمان ! لقد انقضى عهد التجوال الشعري في الريف والطبيعة في البعد عن المدن . ونحن الآن في ضمار عهد لطين السندان فيه واصطخاب الآلات أعظم شأنٍ . فالنغمات المتسقة الغنائية التي كنا ننشدها في امسنا الغابر قد انقضى عهدها وحلت محلها العبارات المقتضبة والشعر المطلق في يومنا هذا القليق المضطرب . وليس هذا بالأمر الذي يؤسف له . فكل فترة يزكو فيها الانتاج العقلي والفني تعقبها فترة راحةٍ تخلد فيها النفس الى السكينة لتستجمّ قواها فاذا بدأت فترة الانتاج التالية اتصفت أساليبها بالعنف وبالرجوع الى السذاجة مستوحية دوافع البشر الاولية في الخلق والابداع

***

ان الثقافة الحقيقية لا تعرف حدوداً من البلدان والاجناس . فهي تحيط بالأرض كالجو وكما تقع في الجو على مناطق مختلفة من حرارة ورطوبة ولكنها على اختلافها متصلة الاطراف تقع كذلك في الثقافة على مناطق متصلة رغم اختلافها . فالشرق والغرب على اختلافهما متصلان حتى ليفنى أحدهما في الآخر في بعض النواحي . لان العالم لا يعرف الآفاق الضيقة

فالشرق تغلب عليهِ الطبيعة يخالطها الادراك المصور الذي يؤمن بأن الزمن هو الكاشف العظيم . والغرب وثّاب متحمس يدفعهُ عنف الشباب

على ان كلا الشرق والغرب باحثان وجوهر الثقافة والجمال الذي يبحثان عنهُ واحد

(١) علي وكيتس شاعران انكليزيان من أكبر شعراء القرن التاسع عشر

(٢) شاعر انكليزي من القرن الرابع عشر

الغرب : يقيم الحدود بين الطبيعة والطبيعة البشرية
والشرق : يؤمن بالوحدة الاساسية في كل الخليقة
الغرب : كعالم يشرح الطبيعة
والشرق : كفيلسوف يسلم بها
الغرب : يرى بعيون الشباب الوثاب : عيون المادة
والشرق : يتأمل بعيون الروح التي لا يدركها الهرم
ومع ذلك فالذي يشاهدانه واحد — وهو الوحدة الخالدة — وحدة الانسان والعالم الذي يعيش فيه

***

كلما تقدمنا في السن قويت بصيرتنا الروحية فنستطيع أن ننظر الى الاشياء نظراً مشارفاً فنفهم عنها . فيحملنا ذلك على تفضيل أيام حداثتنا الزاهية على أيام كهولتنا أو شيخوختنا التي نعاني اعباءها فنشير الى أيام الشباب متحسرين : — كان زمن الشباب كذا وكذا . والواقع أن الحال لم تَسُءْ والايام الماضية لاتفضل الايام الحاضرة حكمة وسعادة وانما بعدنا عنها يمكننا من رؤية أثرها رؤية مجملة شاملة . وهذا ما لانستطيع أن نفعله في أيامنا هذه لاننا مازلنا فيها إن رسم الحائك لا يُرى إلاّ متى تمت حياكة الثوب

ويغلب أن تكون الشهرة نتيجة الترسة السائغة وكثيراً ماتشبهها في مداها !

قد يكتب أحد الشعراء نشيداً وطنيًّا في أثناء نشوب حرب طاحنة فتعصف بالجمهور كعاصف لان الجمهور يرى في سطوره ونبراته صوراً للشعور الذي يجول في صدور أفراده . فيحكم على ناظمه بالنبوغ والتفوق ويرفعهُ على الاكتاف وتصبح كلماتهُ تتردد في كل نادٍ وتسمع أنغامهُ الحماسية في وقع الاقدام العسكرية !

ثم تضع الحرب أوزارها ويمتد رواق السلام فينجب شاعر جديد ينشد أفراح الطمأنينة ومسرات السكينة فيهب نسيمها اللطيف على صدور اكتسحتها من قبل الحماسة في الحرب ، فتُنسى الموسيقى العسكرية التي وضعها الاول ويتاح لمتطرٍ جديدٍ ان يرتفع فوق أكتاف الجماهير الى ذرى الشهرة . ولكن ما أقل الذين يتاح لهم ان يكون نصيبهم التهم والتقدير من أبناء جيلهم وأبناء الاجيال التالية . ومع ان الغرب يمدُّ أيدي الجشع ترى الشرق قابعاً قانعاً منتظراً تحقيق غرضهِ — وغرضهما معاً انما هو — الحق !

— ٣ —

قال الكاتب : ولما غادرت دار طاغور أدركت أنني في حديثي معهُ تكلمت مع مَنْ يعلم

فوائد الرياضة

البدنية في الصحة

للدكتور شوكت موفق الشطي

تكوّن العضلات نصف الجسم تقريباً فاذا لم تحرك تحريكا كافياً يضطرب غذاؤها وتكثر الانقاض السمية فيها فتؤذيها وتؤذي الجسم معها. تحرك الرياضة قسماً كبيراً من عضلات الجسم فتقبضها وتبسطها فتسرّع بذلك جولان الدم واللمف وتيسر حرق الفضالات المتراكمة في البدن وتسهّل تسيير الفضول الباقية فيه وتساعد على إفراغها لذلك تعد الرياضة البدنية متى كانت رشيدة وتابعة للقواعد الصحية عاملاً من اقوى العوامل فعلاً في تنشيط الجسم وتحسين عافته وتنسيق جمال اعضائه اذ انها العلاج الناجع للهزيل النحيف والدواء الشافي للفصاح السمين والوسيلة الناجحة للخلاص من كثير من ضروب التشوه وانواع الاوضاع المعيبة

ينشط بالرياضة القلب فيزداد عدد دقاته ويكثر دفعه للدم الشرياني ويغزر توارد الدم الوريدي اليه ويؤدي ذلك كله الى تنبه جميع الاجهزة وخصوصاً المفرغة منها وأخصها اعضاء الجهاز الهضمي إذ تتأثر عضلات الحجاب الحاجز والبطن وتستفيد الكبد فيسهل افراغ الصفراء منها ومن مرادتها ويقوى عمل المعدة والامعاء فينتظم الهضم ويزول القبض ويعرق الجسم من جراء الرياضة ويكثر مقدار البول

هذا ولما كانت الأعصاب مشرفة على حركات العضلات فانها تقوى بالرياضة ويقوى معها الدماغ والنخاع وباقي أقسام الجهاز العصبي وما يرتبط به من غدد واعضاء وتقوى أيضاً العظام والمفاصل وينتج من ذلك كله تحسن اضطراب الضغط الدموي وطرد السموم المتراكمة وانفراغ القناوات واصلاح الجسم اصلاحاً عامًّا لذلك كانت الرياضة ضرورية للانسان في كل سن ولا سيما لمن كانت مهنتهم عقلية لا تستدعي حركة زائدة

يختلف فعل الرياضة باختلاف السن والجنس وطور الحياة والارتكاسات الشخصية. تبدو الرياضة غريزة ملازمة للانسان منذ نعومة اظفاره فتحريك الطفل يديه ورجليه وهو ما زال في الاقطة والقماط وبذله جهد طاقته للإفلات منها ثم حبوه فلعبه وركضه ووثبه نوع

من الرياضة يناسب سنه ويلائم طبعه تقتضيه حياته وينطلبه نموه وترعرعه . وكذلك الحيوان فان لعب كباره وصغاره رياضة لازمة لها وما على الانسان وهو الحيوان الناطق الا ان ينمي هذه الغريزة ويضع لها قواعد وأنظمة فلا يُفرط ولا يفرّط فيها ولذلك عظم شأنها وظهرت لها مكانة في جميع النفوس

إن الرياضة ضرورية للانسان لازمة له في دور الرضاع وفي مراهقته وفي شبابه وكهولته وشيخوخته فلا ينمو الولد الا بتوافر ثلاثة عوامل له وهي غذاء صحيح كاف وهواء نقي يستنشقه وعيشة هادئة تتخللها دراسة وألعاب رياضية موافقة لسنه . ولا يسعد الشبان الا بشعور داخلي يساورهم فيجعل الحياة لهم طيبة والعيش فيها لذيذاً . وأهم أركان هذا الشعور الصحة والنشاط ولا يكتسبان الا بتحسين حالة الجسم والعقل بالاعتدال في الاغتذاء والرياضة فان في ذلك سر السعادة في الشباب . وكذلك الكهول فانهم اذا مارسوا الرياضة حفظوا قوة شبابهم وأضافوا اليها رجحان العقل وتخلصوا من أمراض بطوء الاغتذاء العديدة المزعجة . واما الشيوخ فلا تتحسن حالتهم وتدفع عنهم ظواهر الشيخوخة المزعجة الا برياضة تناسب سنهم وغذاء صالح يحسنون هضمه وتمثيله

والرياضة ضرورية أيضاً للاحتفاظ بسلامة العقل فتأثيرها في تنمية الملكات العقلية صريح وجلي . ولذلك قيل العقل السليم في الجسم السليم . ويناسب هذا القول العربي الذائع قول جان جاك روسو ومعناه: أن التفكير الصحيح يتطلب رياضة الاطراف والحواس والاعضاء التي تعد بحق وسائل تنمية الذكاء والعقل وتدعم أيضاً دعوة هربرت سبنسر القائلة بحفظ صحة الجسم بالرياضة تأميناً لحسن السير في نماء العقل ونشاطه

وتعلم الرياضة الانسان اعتياد ظلف العيش والخشونة والقناعة والجرأة والشجاعة وتؤمن تناسق الاعضاء واستمرار القوة في كل شيء وتخلص من شر كثير من الامراض وتحفظ الجمال

***

يتضح مما سبق أن الرياضة تحسن حال الوظائف الغريزية وتنمي المواهب العقلية وتكسب الانسان صفات أدبية سامية وتحفظ جمال الجسم وتناسقه وتخلصه من التشوه باصلاحه وتقي الانسان الاصابة بكثير من العلل والآفات وتنجيه من شر كثير من الأمراض والادواء. وقد ثبت طبيًا أن الرياضة بالحركة عامل في الشفاء أشد نفعاً في كثير من الاحيان من العلاج والدواء فلا غرو والحالة هذه أن تعد حاجة الانسان الى الرياضة كحاجته الى الغذاء وأن تحسب عملاً أساسيًا من الأعمال الاسبوعية أن لم يكن من الاعمال اليومية

كلمة تناسبها

عن الرياضة عند العرب بعد الاسلام

أشار القرآن الكريم الى الرياضة في سورة يوسف بقوله «أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون» وقوله «انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا». وفي هذين القولين ذكر للعب والرتع وهو التنعم باللعب والرياضة والمسابقة عَدْواً أو بالرمي وكلها من وسائل التربية البدنية. وقد عرف أيضاً علماء العرب وفلاسفتهم وحكماؤهم وأطباؤهم أثر الرياضة في الجسم والنفس والعقل فدونوا ذلك في أقوالهم وكتبهم حثّ النبي صلى الله عليه وسلم على تعاطي الرياضة وأسباب الفروسية فسابق راجلاً وراكباً ورمى وصارع وأجاز المراهنة في بعض الرياضيات ترغيباً فيها وتنشيطاً للقائمين بها كما تبين ذلك الأحاديث الشريفة الكثيرة الواردة في هذا السدد. ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أقوال تعد من أحسن الوصايا في الرياضة وأروعها معنىً وأكثرها بلاغةً منها قوله: انتزروا وارتدوا وانتعلوا واحتفوا واياكم والتنعم وعليكم بالشمس فانها حمام العرب وعليكم بالمعدية او قال تمعددوا (١) واخشوشنوا (٢) واخلولقوا (٣) واقطعوا الركب (٤) وارتموا (٥) الاغراض. وقال لن تخوروا قواكم ما نزوتم (٦) ونزعتم (٧) وهكذا ظهر بين العرب رجال أقوياء استطاعوا ان يباهوا الأمم بقوتهم كما يتضح من القصة التالية:

أراد ملك الروم ان يباهي العرب والاسلام فبعث الى معاوية رجلين أحدهما طويل والثاني قصير شديد القوة فدعا للطويل بقيس بن سعد بن عبادة فنزع قيس سراويله ورمى

(١) تمعددوا أي الزموا المعدية وهي عادة معد بن عدنان في أخلاقه وزيه وفروسيته.

(٢) اخشوشنوا أي تعاطوا ما يوجب الخشونة ويصلب الجسم ويصبره على الحر والبرد والتعب والشاق فان الرجل قد يحتاج الى نفسه فيجد عنده خشونة وشدة وقوة وصبراً ما لا يجدها صاحب التنعم والترفه بل يكون العطب اليه أسرع

(٣) اخلولقوا أي تهيأوا كما يراد منكم وكونوا خلقاً جديرين بفعله لا كن صبح أركان وأسباب فروسيته وفروته فلم يجدها عند الحاجة

(٤) الركب: جمع ركاب فأمرهم بذلك لئلا يعتادوا الركوب دائماً بالركاب

(٥) ارتموا الاغراض: امرهم أن يكون قصدهم في الرمي الاصابة لا البعد

(٦) النزو هو القفز على ظهور الخيل دون الاستعانة بالركاب

(٧) النزع هو الرمي بالقوس

بها اليه فلبسها الطويل فبلغت تديه فلاموا قيساً على نزع السراويل فقال

أردت لكي ما يعلم الناس أنها سراويل قيس والوفود شهود
وكيلا يقولوا خان قيس وهذه سراويل عادٍ أحرزتها ثمود
واني من القوم اليمانين وما الناس الا سيد ومسود

ثم دعا معاوية للرجل الشديد القوة محمد بن الحنفية فخيرهُ بين أن يقعد فيقوّمهُ او يقوم فيقعدهُ فغلبهُ في المحاولتين وانصرف مغلوباً

***

وقد جاء عن رياضة الصبيان في كتاب احياء علوم الدين للعلّامة الامام الغزالي قوله :— وينبغي ان يؤذن للولد ان يلعب لعباً جميلاً يستريح اليه من تعب المكتب فان منع الصبي وارهاقه الى التعلم دائماً يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش . ويقول العبدري الذي عاش في القرن الثامن للهجرة في كتابه مدخل الشرع الشريف ينبغي ان يلعب الاطفال بعد انصرافهم من المكتب لعباً جميلاً حتى تذهب عنهم آثار التعب والملل وحتى يستأنفوا دروسهم بشوق واهتمام. ومما قاله ابن سينا في هذا الصدد: الرياضة حركة ارادية تضطر الى التنفس العظيم المتواتر والموفق لاستعمالها على جهة اعتدالها في وقتها به غناء عن كل علاج تقتضيه الأمراض المادية والأمراض المزاجية التي تتبعها وتحدث عنها .وبيان ذلك هو انا كما علمت مضطرون الى الغذاء وحفظ صحتنا هو بالغذاء الملائم لنا المعتدل في كميته وكيفيته وليس شيء من الأغذية بالقوة يستحيل بكليته الى الغذاء بالفعل. بل يفضل عنه في كل هضم فضل والطبيعة تجتهد في استفراغه ولكن لا يكون استفراغ الطبيعة وحدها استفراغاً مستوفى بل يبقى لا محالة من فضلات كل هضم لطخة وأثر فاذا تواتر ذلك وتكرر اجتمع منها شيء له قدر وحصل من اجتماعه مواد فضلية ضارة بالبدن من وجوه احدها انها ان عفنت أحدثت امراض العفونة ، وان اشتدت كيفياتها أحدثت سوء المزاج ، وان كثرت كمياتها أورثت أمراض الامتلاء ، وان انصبت الى عضو أورثت الأورام ، وبخاراتها تفسد مزاج جوهر الروح فيضطر لا محالة الى استفراغها، واستفراغها في أكثر الامر انما يتم ويجود اذا كان بأدوية سمية . ولا شك انها تنهك الغريزة ولو لم تكن سمية أيضاً لا يخلو استعمالها من حمل على الطبيعة . ثم يقول ما خلاصتهُ : والرياضة أمنع سبب لمكافحة الامتلاء بافناش الحرارة الغريزية وتعويدها البدن الخمة وذلك لأنها تثير حرارة لطيفة تتحلل ما اجتمع من فضل كل يوم وتكون الحركة معينة في ازلاقها وتوجيهها الى مخارجها فلا يجتمع على مرور الأيام فضل يعتد به

وبحث علي بن العباس المجوسي عن الرياضة بحثاً مطولاً قسمها فيه الى فاعلة ومنفعلة كما هي معروفة اليوم وذكر تأثير كل نوع منها

وقال رئيس أطباء بيمارستان نور الدين الشهيد ما نقلهُ بتصرف : بقاء البدن بدون غذاء محال ، ولاغذاء يصير بجملته جزء عضو . بل لابد ان يبقى عند كل هضم أثر ولطخة اذا تركت وكثرت على طول الزمن اجتمع شيء له قدر يضر بكيفيته وبكميته والرياضة تمنع تولدها لذلك فان للرياضة حظاً عظيماً في حفظ الصحة وهي تعود البدن خفة ونشاطاً وتجعلهُ قابلاً للغذاء وتصلب المفاصل والأوتار والرباطات فتقوى على الأفعال وتأمن من الاعتلال وتؤمن من جميع الأمراض المادية

ولم يقصر أدباؤهم في الدعوة الى الرياضة بأسلوب رائع بديع وأدب رفيع . ومن ألطف أقوال أدبائهم في الرياضة عامة والتروض بالصيد خاصة كلمات المولى الفاضل شهاب الدين محمود ابن سليمان الحلبي الكاتب حيث يقول : —

والرياضة تبعث النفس على مجانبة الدَّعة والسكون ، وتصونها عن مصاحبة الحمائم في الركون الى الوكون ، وتحضها على أخذ حظها من كل فن حسن ، وتحثها على إضافة الأدوات الكاملة الى فصاحة اللسن ، وتأخذ بها طوراً في الجِدّ وطوراً في اللعب وتصرفها في ملاذ السعو في المشاق التي يستروح اليها التعب فتارة تحمل الأكابر والعظماء في طلب الصيد على مواصلة السُّرى ، ومقاطعة الكرى ، ومهاجرة الأوطار ، ومهاجمة الأخطار ، ومكابدة الهواجر ، ومبادرة الأوابد التي لا تدرك حتى تبلغ القلوب الحناجر . وذلك من محاسن أوصافهم التي يذم المرض عنها ، واذا كان المقصود من مثلهم جِدَّ الحرب فهذه صورة لعب يخرج اليها منها . وتارة تدعوهم الى البروز الى الملعب ، فيمتسفون اليها الدُّجى اذا سَجَى ، ويقتحمون في بلوغها حُرَّق النهار ، اذا انهار ، ويقتحمون بوعثاء السفر في بلوغ الظفر ، ويستغزرون ركوب الخطر في إدراك الوطر ، ويؤثرون السهر على النوم ، والليلة على اليوم ، والسندق على السهام والوحدة على الالتئام

***

يلاحظ القارىء مما مرَّ ان أقوال المتقدمين في صدد الرياضة تتفق وأقوال المتأخرين وان آراء علماء الغرب وأدبائهم في فوائد الرياضة وطرق تأثيرها تحاكي آراء حكماء العرب وعلمائهم فالى هؤلاء يرجع شرف البحث والتحقيق والتمحيص والتدقيق . وقد قصدنا بذكر قطر من بحر وغيض من فيض مما قالوه وبينوه ابتغاء رد الفضل الى ذويه والسلام

معركة الاصلاح

الاجتماعي

قادتها ، خططها ، أسلحتها ، جنودها ، ميادينها [1]

لمحمد العشماوي بك

سيداتي ، سادتي . بناتي ، أبنائي :

إنهُ لمن حسن حظي أن تتاح لي الفرصة لأتكلم كي أحقق غرضين :

الاول — ان أتنفس عن نفسي . فان مشكلة الاصلاح الاجتماعي ، وقصور العناية به وضعف الثورة من أجله لما يرد النفس عن هدوئها ويجعلني محدثاً ثوريًا بدل أن أكون محاضراً . والغرض الثاني — أن أؤدي ديناً عليَّ لمدرسة الخدمة الاجتماعية ، فقد كنت أول المتكلمين في حفل افتتاحها ، بيد أني تكلمت وكيلاً لوزارة العارف مكلفاً من قبل وزيرها بصفة رسمية ، ثم توثقت بيني وبين المدرسة صلات المودة والتعاون بعد خروجي من الوزارة ، على غير العادة المألوفة التي تقضي بتراخي العلاقات بعد ترك المنصب ، فأبى وفاء هذه المدرسة إلاَّ أن يقلب الأوضاع فتتوشج بيني وبينها الصلات حيث تلتقي المصلحة لاحيث تدعو ، فتلقاء هذا الخلق الكريم أؤدي واجب التحية لهذه المدرسة في مستهل عامها الخامس ، راجياً لها مطرد التوفيق

وقبل أن أحدثكم في شأن معركة الاصلاح الاجتماعي أريد أن أدفع وهمين : الاول ما أفاضه عليَّ وكيل وزارة الشئون الاجتماعية الاستاذ حسونة بك من ثناء ، فانهُ مؤدٍّ بي الى حرج حينما يقاس إليه ما أنا متحدث به وستجدون هوَّة بين قولي وثنائه إذ تسمعون حديثي فلا يروعكم بشيء مما أفاضه عليَّ ، فلتردوا ثناءه الى نبالة شخصه وكرم صداقته ، ورأي الصديق مفروض فيه المبالغة . وإنهُ لمن مصلحتي أن أتجرد مما تحلني إياه من الفضل شاكراً له سخاءه ، وأن أطالعكم بحقيقتي في ثنايا قولي . فأما الوهم الآخر الذي أريد دفعه فهو أني ألقي محاضرة . والحق أني لم ألق محاضرة ، في حياتي قط إلاَّ في القانون أعني مادتي وميدان علمي . ولست في مضمار الاصلاح إلاَّ هاوياً من الهواة . ولا يجوز

(١) الكلمة التي افتتح بها عزته العام الخامس لمدرسة الخدمة الاجتماعية يوم ٤ أكتوبر ١٩٤١

أن يسعى الهاوي محاضراً . ولعلَّ من الواجب أن تحتج مدرسة الخدمة على أن أحشر في زمرة أساتذتها المحاضرين التخصصين ، على حين أني إنما أطالعكم في حديثي بفورة من فورات النفس أتيحت لها الترمة أن تندلع

***

وربما كان مما أغراني بقبول التحدث اليكم في معركة الاصلاح الاجتماعي أني أقوم على رأس جماعة تعنى بالاصلاح وتعمل له، فبينها وبينكم أمتن الروابط وآكد العلاقات القائمة على تداول الرأي وتبادل المعونة . ومن حقي إذن أن آتي اليكم حاملاً علم الجماعة التي أرأسها، فانها بما أنشأته من مؤسسات الطفولة وبما تؤديه من الشؤون الاجتماعية تساركم الى غايتكم النبيلة في الاصلاح ، وتنهض بقسط من مهمتكم في الخدمة العامة . فأنا في مقامي هذا أؤدي لكم واجب الشكر وواجب المعونة معاً . وبذلك أكون دائناً ومديناً في وقت واحد، فتقع المقاصة وأخرج بريء الذمة لا لي ولا علي

ولعلكم أن تسألوني وقد اخترت كلمة « معركة الاصلاح الاجتماعي » عنواناً لحديثي : لماذا آثرت هذا الوصف ؟ والحق أني متأثر بعاملين : الاول أننا في عهد حرب تتادينا أنباؤها المنكرة في الصباح وتغير علينا نوائبها الجائحة في المساء . فقد مني بها العالم أجمع لا فرق بين محارب ومحايد . ولا منجاة منها في بر أو بحر أو سماء . وقد سخرت لها كل ما في الدول من قوى وزجت فيها كل وسائل الدفاع والهجوم ، وجندت لها العلوم والعقول والجسوم . فلا غرو إن تأثرنا في جو الحرب بلغة الحرب . ولا بدع إذا استعملنا ألفاظ القتال الدائرة في أفواهنا لنصل بأحاديثنا الى القلوب . والعامل الثاني أن معركة الاصلاح معركة حقة فليست هي وحي خيال أو وهم شاعر ، وإذا قام الخلاف على معركة الحرب ، أهي بين الخير والخير، أم هي بين الشر والشر، أم هي بين الخير والشر . فانهُ لاخلاف على ان معركة الاصلاح قائمة بين الخير والشر لا غير . ومن ثمَّ فهي مقطوع بمشروعيتها يجب أن تؤازرها وأن نعمل في ميادينها حتى تكمل لها الفوز والنصر

ولو تقصينا الموازنة بين معركة الحرب ومعركة الاصلاح الاجتماعي لوضحت لنا وجوه الشبه بينهما . فكلتاهما لها خططها وأهدافها ، ولها قادتها وجندها ، ولها ميادينها ومناطقها . فان معركة الاصلاح الاجتماعي تعتمد على أسلحة متنوعة كالشأن في معركة الحرب، وهي أسلحة تتفاوت بتفاوت المستوى الاجتماعي لكل أمة، ولكنها تلتقي في وجوب اجتماع قوى الأمة كما تجتمع في الحرب قوى الدولة . وهي كذلك معركة يجب أن يكون لها طلائع من الكلام

والدماية كما في الحرب . فواجب أن يمهد المصلح لها . وأن يعمل على تقبل الشعب الجديد الاصلاح . وهي معركة تبتدئ بالقول وتنتهي بالسلاح ، وما أشبهها بالاسلام إذ بدأ بالدعوة وانتهى بإعمال السيف ، وقد أجاد شوقي بك تصوير ذلك في قوله :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك له عفواً كل ذي حسب تكفل السيف بالجهال والعمم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم

***

على أن معركة الاصلاح الاجتماعي تختلف عن معركة الحرب بأنها كما أسلفت معركة مشروعة وبأنها لاهدنة فيها ولا صلح . فإن أمثل العالم وضع الحرب أوزارها على أي وجه ، فإنه يجب أن نقطع الأمل من انتهاء معركة الاصلاح ما دام الشر قائماً ، وسيقوم حتى تقوم الساعة

ومن عناصر الخلاف بين المعركتين أن معركة الاصلاح للتعمير لا كمعركة الحرب للتدمير . نصيب المهزوم فيها الخراب ، وحظ المنتصر فيها الخسران لا محالة . فما يراد بمعركة الاصلاح إلا تعمير البلاد أخلاقاً وعقولاً وحياة ، وإلا استقامة الامر للحاكمين والمحكومين على السواء

ولما كانت معركة الاصلاح للتعمير فقد كانت اسلحتها للتعمير ايضاً لا كالأسلحة الحربية المدمرة ، وإذن فتلك خير المعارك التي يشتغل بها الناس اذا أرادوا كسب المعركة الكبرى . وليت شعري كيف تستقيل معركة الحرب امة نهك الفقر قواها وتعطلت من الاخلاق نفوسها . فحتم أن تكون معركة الاصلاح سابقة لمعركة الحرب حتى تكفل أسباب الانتصار

وعلينا اذن ان نخرج على العرف فنسمي معركة الاصلاح المعركة الكبرى ونعتبر ما عداها صغرى المعارك . وإني ليحضرني في تأييد ذلك حديث للرسول صلوات الله عليه في عودته من إحدى مغازيه إذ قال : « رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الاكبر » . يريد مجاهدة النفس ومغالبة الأهواء . فالاصلاح الاجتماعي هو الجهاد الاكبر بلا مراء

ولقد وضح لكم أن لمعركة الاصلاح أوضاع المعركة الحربية . ومن هذه الأوضاع إعداد القادة . ففي معركة الحرب يعدون بالدراسة والمرانة معاً . وقد يبرز بعض القادة كبعض المصلحين تحفزهم همة وثابة ، ونفس قوية ، دون إعداد سابق أو تمرين . بيد أن المعارك الحربية الحديثة لم يعد يصلح لها هذا الضرب من القوّاد . فلا بد للقيادة من دراسة لفنون

الحرب . واتساع عن بطائع الأرض وضيقات البر واعماق البحر الى تنهم تقسيمات الشعوب ومعرفة موارد ها ومصادرها . وكذلك الأمر في معركة الاصلاح ، فانها تحتاج الى قادة متخصصين . فلم يعد يكفي في ذلك أن تعرض لمصلح فكرة فيستخدم بارعته للتأثير في محيطه فان ذلك منتهٍ حتماً الى الاخفاق . وكيف تستطيع قائداً لا يعرفه شيئاً من شؤون البلاد ولا من تقسيات أهليها ولا من وضعها الاقتصادي ولا من العوامل التي تؤثر في الدعوة رفضاً أو قبولاً . ولهذا وجب أن يسبق القيادة في ميادين الاصلاح احاطة بمشكلات المجتمع وبواعث الانحلال فيه ووسائل النهوض به

ومن الطبيعي وأنا في صدد تكوين القيادة أن تعرض لي على الفور مهمة وزارة الشؤون الاجتماعية، فقد القيت اليها مقاليد القيادة. ثم جندت البلاد كلها تحت لوائها . ومن العبث أن تكل الى هذه الوزارة مواجهة المشكلات على وجه التفصيل . فذلك عمت لا تستقل به هيئة . فالوزارة كما أتصورها في مركز القيادة حولها هالة من رجالات الفكر وذوي الرأي يدرسون وسائل الاصلاح في الأمم الناهضة . ويراعون الفوارق بين البيئات المتباينة . فان نوعاً من الاصلاح في بيئة قد لا ينتج في بيئة أخرى . وحين تتهيأ للوزارة هذه الكفايات يتسنى لها أن ترسم الخطط وتضع البرامج مستفيدة ما يتطلبه العمل من وقت متسع وجهد متصل ومال موفور. فعلى هذا الأساس تصورت وزارة الشؤون الاجتماعية وعلى هذا الأساس تمثلت عملها، وعلى غير هذا الأساس لا يمكن أن يكون للوزارة أثر محمود . ولا يفوتني في هذه المناسبة أن أندد بالآراء المرتجلة في الاصلاح تلك التي لا برنامج لها ولا خطة يقوم عليها أمرها . فهي قد تفتت الانظار وتستهوي الافئدة . ثم لا يلبث أثرها أن يتزايل ، شأن كل عمل لم يعين هدفه ولم تراع ملابساته ولم تستكمل دراسته ، فمن رأيي الذي أجهر به أنهُ يجب أن تتوافر أولاً كل الوسائل التي تمكّن وزارة الشؤون الاجتماعية من رسم خطتها . لا يضن عليها في سبيل ذلك مال ولا بحقول تجارب ولا بأية وسيلة تعين على الدرس واستقرار الرأي والاطمئنان الى بلوغ الغاية وإصابة الهدف .

وللتمكين من ذلك كله يجب أن يكون للوزارة سلطان يستوعب سائر الوزارات والمصالح، لا تقف في طريقه عقبات تنازع الاختصاص، فانهُ لا فائدة من تنفيذ البرنامج الاصلاحي المستقر غير المرتجل إلاّ بترجيد القيادة وتقويتها وإعطائها حق الفرض والتنفيذ، وإلاّ بانطواء جهود الحكومة والشعب تحت راية واحدة، يبذل كل من خفقت عليهم ما حباه الله من رأي أو مال

فأما خطط المعركة فقد ألمحت اليكم أن الاصلاح لا خطة له في مصر . وإنما هي مرتجلات

من الآراء والأفكار تواجه بها كل مشكلة حين يشتد تعقدها. وما أحوجنا الى تحبيب الارتجال في حل ما بين أيدينا من مشكلات تداعي الامر ، والتشريع الناقص ، واضطراب القوت ، وبلبلة التعليم . فان تفكيرنا في ذلك وأمثاله مرتجل لا ينهض على أسس من الدراسة المنظمة والنفوذ الى الجوهر

***

لقد آن لنا أن نعدل عن هذه الحال وأن نستعرض حياتنا في شتى مرافقها . فنرسم لجوانبها المختلفة خطة منسقة تستجيبها وتعالج أدواءها. وكفى انتاظرنا طول هذا الزمن على غير هدى. وهذا هو ريفنا أمامنا مقياساً لما تورطنا فيه من اهمال وعوض . ولا أذكر لكم حديث رجل من كبراء الاجانب قال لي يوماً « رأيت الريف اول ما رأيت وشهدت حاله فلم أشك في أن عاصمة هذه القرى قرية على غرارها تمتاز ببعض السعة في الرقعة . ثم دخلت القاهرة فلم ألبث أن تصورتها رأساً كبيراً ركب في جسم ضئيل . ولا يستقيم لمخلوق كهذا عيش ولا حياة » وان هذا الحديث لحق كل الحق، وحسبكم مصداقاً لذلك أن القاهرة وحدها تضم نصف معاهد التعليم في أنحاء الوادي كله . فنحن لا ننظر الى مصر كلها باعتبارها رقعة واحدة . وإنما نعني بكبريات المدن ونركز فيها أسباب العمران . وبذلك كانت الهوة عميقة بين الحواضر والقرى . فاختل توازن الحياة الاجتماعية لابناء البلاد . فلزام علينا أن نراعي المساواة في غير تطرف، وأن نقرب الهوة بين الطبقات حتى لا تسير الأمة بشق مشلول ، وتلك هي مهمة الاصلاح الاجتماعي وذلك واجب القيادة العامة . فعليها أن تراجع الحياة الاجتماعية للشعب مبتدئة بالطفل الى الشيخ ، مستوعبة لنواحي الثقافة والاقتصاد والاجتماع

***

ولننتقل الآن الى الجنود ، ومن هم ؟ هم أبناء البلد جميعاً، فيجب أن يجند كل قادر على العمل في أي ميدان ، ويجب ألا يترك ذلك لمحض الرغبة بل يكون التجنيد إجبارياً، كل بما يتسع له ذرعه وينفسح له إمكانه. وقد أرشدنا الى ذلك رسول الله صلوات الله عليه حين قال : كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته . وقد بلغ في حديثه الشريف الى الخادم فسماه راعياً وعده مسؤولاً عمن يرعاه . فعلينا إذن ان نعتبر الاصلاح فرض عين لا فرض كفاية . ذو المال يقدم مما ملكت يمينه ، وأخو العلم يبذل من علمه، وصاحب التجربة يفيد مما أضاءت عليه تجاربه، وذو الجاه يزكي عن جاهه فان للجاه زكاة كالمال يجب أن تؤدى . وعلى الجملة لا بد أن يكون كل فرد خادماً اجتماعياً في المحيط الذي يعيش فيه وفي الميدان الذي يصلح له وبذلك يتعاون

الافراد في بيئات فتكون الاسر والمصالح والمعاهد مثابات للاصلاح ، وتصبح الامة كالبنيان يشد بعضه بعضاً

واننا لن يفتنا من ذلك مأربنا واجهنا معركة الاصلاح ضامنين الفوز والنجح . ولكن ما هي عدة الجنود ؟ الايمان اولاً والعلم ثانياً ، يجب ان يؤمن الجند بالفكرة . وبواجب العمل بها . فاذا تعوزه الايمان لم يبق في سبيل الاصلاح عائق . ولقد سمعت مرة قائلاً يلتمس العذر للراغبين في الاصلاح بأنه لا مال لهم يكفل النهوض بالغرض المرجو ، فحضرتني حينئذٍ دعوة الاسلام ، وهل كان سلاحها الا الايمان والاعتقاد وما تبعه من احتمال للاذى ومواصلة للسعي ؟ وعيناً لو وضعوا العقيدة في كفة وأسلحة الدنيا في كفة لرجحت الاولى وان طال بها المدى

ولن ننسى أسلحة أخرى لها خطرها في سير المعركة ، فهناك الصحافة بقوتها وجبروتها ، فلو عملت على التبشير بفكرة الاصلاح الاجتماعي في أساليبها الصحفية المؤثرة ومنطقها المعتمد على استخدام الحوادث الجارية ، لبعثت من مراقد اولئك الذين استكانوا ورضوا بالنقص الاجتماعي الراهن . وهناك توأم الصحافة أعني الاذاعة ، وعلى عاتقها يجب أن يقوم قسط كبير من الدعوة والتوجيه والارشاد . واذا شئنا ان نضمن لانفسنا الفوز في تلك المعركة فلا نصير لنا كالدين فهو أكبر سلاح للإصلاح ، والدين المعاملة ، والتربية الدينية الصحيحة أقوى دواعي النهوض الاجتماعي والعمل له . فعلينا ان نعتمد على مبادئها الصافية تبعث في نفوسنا أعمق الايمان بالاصلاح والتجرد لخدمته في أشق الميادين جهاداً وأدعاها الى التضحية بكرائم الاموال وعظائم الجهود

***

وهيهات أن يفوتنا الالتفات الى المرأة ، ومن الخير ان نكاشف أنفسنا بأنها في أغلبيتها العامة تحمل من عوامل الضعف الذي نعانيه ، فما نكره من تداعي الاسر والامة من ورائها انما يرجع الى أن المرأة لم تهيأ لتأدية رسالتها في الحياة على وجهها الصحيح . ورحم الله شاعرنا شوقياً إذ يقول :

وإذا النساء نشأن في أمّيةٍ رضع الرجال جهالةً وخمولا

فاذا لم نعن بتهيئة المرأة واذا لم نراع الرشد في التهيئة المنشودة فلا سبيل الى اصلاح . ومن الرشد ان نصرفها عن ان تزاحم الرجل في ميدان هي فيه أقل جدوى ، وإنما تدفعها اليه فكرة المساواة على اطلاقها ، متغابية عن واجب توزيع العمل . فلقد كدنا نواجه ازمة هي ترك المرأة ميدان المرأة — ذلك هو تربية الجيل — واستباقها ميدان الرجل الذي أسميه «ميدان

أكل الخبز » ولو صدقت المرأة في هذا الاعتراف لفقدت هذا الجندي في ميدانه الذي أعدته له طبيعة الحياة

***

أما الشباب فهو خيرة الجند الذين يجندون في معركة الاصلاح . ولقد طالما تناقل بعض الناس مقالة اليأس من الشباب وإسقاطه من الحساب إذا أريد الاصلاح الحق . واجتزئ في رد ذلك بالإشارة إلى ما كان من شأن عرب الجاهلية في مفتتح الدعوة الاسلامية فلقد كان تدبير صاحب الدعوة أنه قلب الامر في أنفسهم خيراً ، والبغي عدلا ، والغصب والعدوان فتحاً ونشراً لكلمة الله . واذا أسقطت شباب اليوم فمن يقوم على بناء المستقبل . ومن ينشىء أبناء الغد ؟ ألا إني أسقط الاجيال القادمة جميعاً اذا أسقطت من الحساب شباب الحاضر وانما السبيل ان تتولى القيادة توجيه الشباب توجيهاً صالحاً ، واستغلال وقت فراغه استغلالاً يعود على الوطن بأطيب الثمرات

***

والآن نسأل أنفسنا ما هي ميادين الاصلاح التي تجري فيها المعركة المنشودة ؟ أمامنا ميدان الطفولة . وانه ليقتضينا جهوداً متواصلة فالطفولة مهملة في بيئة الغني وبيئة الفقير على حد سواء . فالفقير عاجز عن النهوض بتبعات التنشئة والتربية . والغني سادر في طوره تارك طفله لخادمه ينشئه على غراره . فعلينا ان نلج هذا الميدان في بيوت الأغنياء والفقراء حتى نخلق جيلاً جديداً يسلم من النقص الاجتماعي الذي يشكوه المصلحون

***

ووراءنا ميدان الريف ، آمال معسر في الحياة . فنحن نسمع به ولا نرى شأنه أو نرى ثم نتعامى عن حقائقه المرة . وأين نصيبه من وسائل الاصلاح ؟ ولعلكم تذكرون ما قام من العراقيل حين نُوديَ بمشروع المراكز الاجتماعية وما قيل في صدد ذلك من أن عمل وزارة المعارف ووزارة الصحة فيه العوض من عمل هذه المراكز . وبذلك خلطوا بين مهمة الثقافة العامة والصحة العامة وهذه المهمة الخاصة بحياة الفلاح التي يراد من أجلها انشاء المركز الاجتماعي في القرية

والحق أن مرافق الحكومة صحية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية هي بمثابة الهواء في الاجواء . وليس يكفي أن يتناوح الهواء في الخلاء ليتنفس فيه أولئك الذين أغلقت عليهم أبوابهم وسدت دونهم منافذهم فليس تجد النسمة اليهم مخلصاً وليسوا واجدين اليها سبيلاً . وما المراكز الاجتماعية التي هي موضع التساؤل بين المصالح والوزارات عن فائدتها الا بمثابة

الباب بنفذ منه الهواء أو النافذة يمرق منها الضوء الى حياة الفلاح المظلمة . وإذ تتضح مهمة المراكز الاجتماعية على هذا الوجه لا يبقى مجال لتساءل عن فائدتها فانما هي لارشاد وتوجيه وتسديد وتبصير للجاهل وتذكير للغافل ليستنشق الهواء ويستضيء بالنور . وليس يبعث تيار هذه الهداية الا القيادة العامة أعني وزارة الشئون الاجتماعية . وعلى الرغم من وضوح هذا الغرض واستقامته في الذهن طالما تقاتل وتجادل في فائدة هذه المراكز ، وشُغلنا عن الغرض الاسمى ، غرض الاصلاح والتعمير بتقوية هذه المراكز ودعمها

وهكذا يفقد ريف الفلاح إشرافاً مباشراً محسوساً له صفة خاصة تيسر له وسائل الاصلاح . ولقد عشت في الريف أشهراً هذا العام . فوضح لي أن الفلاح لا يشعر بأن هناك حكومة تعمل من أجله شيئاً . ومما أفكهكم به على تصويره الحقيقة أن فلاحاً شيخاً سئل ، هل تعرف الحكومة ؟ فأجاب في سذاجته الطاهرة : والله لقد عشت عمري كله لم أرَ لها في بلدي وجهاً !!

***

وهل يليق بنا أن نجعل في ميادين المعركة ميدان الأسرة ، وهي الخلية الحية في جسم الأمة ؟ أين هو المركز الاجتماعي الذي يتغلغل في مختلف الطبقات لاصلاح حال الأسر صحيًّا واجتماعيًّا وخلقيًّا لانتزاع الخرافات ، وبواعث الشقاق ، مما أدى الى التخاذل والانهيار ، ألا إن ميدان الأسرة يحتاج الى جنود صادقة الجهود ، وهو بمنايقنا العاجلة جدير

***

بقي عليّ أن أشير الى انقسامنا طائفتين في الروح : طائفة المتفائلين وطائفة المتشائمين . وانذنوا لي أن أصارحكم بأن كلتا الطائفتين نكبة هذا البلد . فالمتفائلون دعاؤهم أن يصلح الله الحال ، وعقيدتهم ان التطور الطبيعي كفيل بازالة الفاسد وإصلاح الشأن ، وأولئك شر على الأمة فان لله سنناً كونية ليس منها ان يغير الله ما بقوم لم يغيروا ما بأنفسهم ، وأنت إن لم تزرع فلا حصاد . أما المتشائمون فهم يمضغون في أفواههم ان المشكلة عويصة وان البلد مختل الحال . وانه لا أمل في اصلاح وانه لا يمكن تغيير الواقع بين يوم وليلة . وفي هذا تسويغ لكسل الذهن وقعود الهمة ، واعتذار عن التقصير في حق الوطن والنكوص عن بذل المجهود من أجله

فلنتجنب هؤلاء وهؤلاء ، ولنكن عمليين ندعو الى الاصلاح ونتقاسم الجهود في ميادينه ونؤمن بأننا جميعاً في سفينة ، فمن خرق منا مكانه هلك وهلكنا ، فإن منعناه نجا ونجونا

والسلام عليكم ورحمة الله

مخاطر الحياة

في غواصة في أثناء الحرب

عندما تغادر غواصة قاعدتها ، وقد لا تعود اليها إلاَّ بعد أسابيع ، يتعين عليها ان تبقى مختفية في أثناء النهار تحت سطح الماء ولا تصعد الى السطح إلاَّ ليلاً لشحن بطرياتها الكهربية وتجديد هوائها . وعندما تكون الغواصة على سطح الماء يجب على بحارتها ان يبالغوا في اليقظة لئلا يفاجأوا بسفينة حربية تطلق عليهم مدافعها او تقذفهم بقنابل الاعماق بعد غوصهم. وفور النهار لا يرى في داخل الغواصة إلاَّ عن طريق منظارها . وهناك دائماً رائحة كريهة مردُّها الى الهواء الشبع بأنفاس البحارة ، والطبخ وأبخرة البطاريات وما أشبه . والغواصة دائمة التعرض لقنبلة الاعماق او للاصطدام بلغم او الوقوع في شبك خاص يستعمل لصيد الغواصات في أحوال معينة

واذا هبطت الغواصة الى القعر ولصقت به ، فنجاتها محتملة اذا كان العمق معتدلاً ولكن اذا لصقت بالقعر في مياه تابعة للاعداء فنجاتها نادرة . نعم ان الرجال قد يخرجون من الغواصات متوسلين باحدى وسائل النجاة الحديثة ، يحدوهم الأمل بأن يلتقطهم أحد ولو كان من الاعداء . ولكنهم في كثير من الاحيان يموتون رداً قبل ان تقع عين عليهم

والتعاون بين رجال غواصة ما ، قاعدة لا يستغنى عنها . وليس أدلّ على وجوبها من ان غوص الغواصة يقتضي وجود رجالها في خمسة عشر موقعاً من مواقعها وتحريك نحو مائة صمّام . فاذا لم يكن كلُّ رجل في مكانه واذا لم ينهض كلٌّ منهم نهوضاً دقيقاً بما ينتظر منه فقد لا تغوص الغواصة كما يجب ان تغوص وعندئذٍ تتعرض هي وجميع رجالها للخطر

وتدقق الأميرالية في كل بلد في اختيار الرجال للخدمة في الغواصات لأن المشاق الجسمية التي يعرضون لها والجهد العقلي الذي تقتضيه الحياة في الغواصة ، أعظم مما يعانيه رجال السفن الحربية الأخرى بوجهٍ عام

ولا يخفى ان هواء الغواصة يأخذ في الفساد بعد غوصها ، بما ينفثه فيه رجال الغواصة من ثاني اكسيد الكربون في أثناء تنفسهم . واذا عجزت الغواصة لسبب ما ، عن ان تصعد الى سطح البحر لتجديد الهواء ، فان هواءها لا يجدد بطريقة أخرى . وقد أثبت البحث العلمي

الحديث انهُ اذا بلغ مقدار ثاني اكسيد الكربون في الهواء ٣ في المائة لم ينشأ عنهُ ضرر ما، وهذا المقدار يزيد على المقدار السوي في الهواء الطلق أكثر من مائة ضعف. فاذا زاد مقدار ثاني اكسيد الكربون عن ٣ في المائة عسر التنفس ولا سيما في من يُطلب منهُ جهدٌ عضليٌ ويشعر الرجل نفسه ان صدره ضيق وانهُ لا بدَّ من بذل نشاط خاص للتنفس. فاذا بلغ المقدار ٤ في المائة بدا الاعياء على الرجال ولاسيما اذا صحب زيادة ثاني اكسيد الكربون ضرورة الجهد العضلي. فاذا بلغ المقدار ٥ في المائة أصبح الشعور بالاعياء حادًّا والجهد العضلي قريباً من المستحيل، فاذا زاد المقدار الى ٥ر٥ في المائة حصل تشنج وقد يعقبهُ الموت بعد تعرض طويل. وزيادة مقدار ثاني اكسيد الكربون في الهواء يفضي الى ابطاء الاعمال العقلية فيسفر ذلك عن ارتكاب اخطاء في التصرف والحكم. فقد يحكم ضابط غواصة في حالة من هذا القبيل ان مسافة سفينة يراها بالمنظار لا تزيد على مائتي متر بينما تكون أقرب من ذلك او أبعد. وقد يحاول بحار ان يدير مفتاحاً ما عدداً معيناً من الدورات فيخطئ العدَّ

***

وفي اثناء تولد ثاني اكسيد الكربون ونفثه في هواء الغواصة بالتنفس ينتزع المتنفسون مقداراً من اكسجين الهواء. أي انهُ متى ارتفع مقدار ثاني اكسيد الكربون الى ٣ في المائة يكون مقدار الاكسجين قد نقص الى نحو ١٨ في المائة. والظاهر ان التأثير البادي في صحة الرجال العقلية والجسدية، مردُّهُ الى كثرة ثاني اكسيد الكربون لا الى قلة الاكسجين، لانهُ اذا لم يزد مقدار ثاني اكسيد الكربون ونقص مقدار الاكسجين الى ١٤ في المائة لا الى ١٨ في المائة وحسب، لم تظهر الآثار المتقدمة الذكر على التنفس. ومما يؤيد هذا القول ان المصعدين في الجبال استطاعوا أن يلبثوا وقتاً غير يسير على قمة جبل پيك (Pikes Peak) في اميركا حيث مقدار الاكسجين لا يزيد على ١٢٫٥ في المائة. واستناداً الى التجارب التي جرَّبت بالطيارين الذين يحلقون الى مرتفعات عالية جدًّا، لا يشعر المرء بهبوط قواه كما تهبط قوى رجال الغواصات، الاَّ اذا هبط مقدار الاكسجين الى ١٠ في المائة على شريطة بقاء مقدار ثاني اكسيد الكربون معتدلاً او سويًّا

فازالة ثاني اكسيد الكربون من هواء الغواصة يجب ان يضاعف مدى استنشاق الهواء بغير ان تحدث العواقب التي اشرنا اليها. ومعلوم ان الجهد العضلي يزيد مقدار ثاني اكسيد الكربون الذي ينفثهُ رجال الغواصة في تنفسهم. فاذا تعذَّر تجديد هوائها لسبب ما فعلى الرجال الذين لا يتعين عليهم النهوض بعمل خاص ضروري ان يلبثوا في اماكنهم بغير حراك.

واذا كانت درجة الحرارة عالية فعليهم أن يتجردوا من ثيابهم ليجتنبوا انفاق الطاقة التي لا بد منها لتوليد العرق . لان العرق وسيلة الجسم لخفض حرارته . وبهاتين الوسيلتين ينقص توليد ثاني اكسيد الكربون واستنفاد الاكسجين الى أدنى حدّ مستطاع

وقد وضعت الاميرالية الاميركية حدوداً لمقدار الاكسجين وثاني اكسيد الكربون في هواء الغواصات لا يجوز تعديها الاّ اضطراراً فالاول لا يجب ان يهبط دون ١٧ في المائة. والثاني لا يجب ان يزيد على ٣ في المائة وبذلك يضمن للرجال هواء لا يقيهم شروراً عظيمة

***

وعلى ذكر الهواء النقي وغير النقي في الغواصة ، يجب ان نعرّج على موضوع الغازات السامة التي تتولد في احوال معينة وتتسرب الى الهواء . فاذا تطرقت مياه البحر الى بطريات التخزين الكهربي تولد مقدار كبير من غاز الكلور . ووجود مقدار منهُ يبلغ خمسة في الالف من شأنه ان يعرّض الرجال لخطر كبير . ومن الغازات السامة التي أفضت الى تسمم رجال الغواصات البريطانية غاز الآرسين Arsine وقد حدثت إصابات تسمم مزمن بهذا الغاز في الحرب العالمية الأولى . وكانت الحوادث الأولى في غواصات مضى عليها ثماني عشرة ساعة وهي تتولى عمل الدورية في منطقة ما . فأصيب فريق كبير من رجالها بالدوار مع انهم متمرسون بحياة البحر والدوار أبعد ما يكون عنهم عادة . وتحولت اصابتهم الى ما يشبه اليرقان ووصفوا بأنهم « البحارة الصينيون » عند عودتهم الى البر . وكان اولا ان مردّ اصابتهم الى التسمم بأول اكسيد الكربون ثم ثبت ان غاز الارسين هو السبب

ووجد الزرنيخ (وهو المادة الأساسية في الارسين) في شعر الرجال وأظافرهم . وبعد البحث توصلوا الى معرفة سرّ تولده ، فاذا هو في صناديق البطاريات ولم تكن مصنوعة صنعاً دقيقاً وفقاً للمواصفات الفنية

ومن نحو سنتين او أكثر قليلاً رويت رواية عن اصابة غريبة بالغاز في احدى الغواصات الايطالية وورد ذكرها في بيان سلاح الغواصات الايطالية . ففي اليوم الرابع بعد قيام الغواصة من قاعدتها أصيب معظم رجالها بالضعف والصداع والدوار والقيء وضعف الذاكرة وكان لا بدّ من علاجهم وراحتهم مدى خمسة أيام الى خمسة عشر يوماً قبل شفائهم . وعرف السبب فاذا هو غاز «ميثل كلوريد» Methyl Chloride المستعمل في أجهزة التبريد

ومن المخاطر التي يتعرض لها رجال الغواصات خطر غاز الايدروجين مع انهُ ليس غازاً سامّاً . وهو يتولد في بطاريات التخزين الكهربي في أثناء شحنها بالكهرباء . ومن المتعارف

انه اذا بلغ مقدار الايدروجين في الهواء ٤ر٨ في المائة اصبح الهواء قابلاً للاشتعال واذا بلغ التدفق ١٨ في المائة اصبح قابلاً للتفجر . ولذلك تستعمل وسائل خاصة للتهوية لكي لا يزيد مقدار الايدروجين على ٢ في المائة . ومع ذلك رويت روايات عن حوادث انفجار في بطاريات الغواصات وغيرها في جميع اساطيل العالم . وعند انصابين في هذه الحوادث كان كبيراً

واذا كانت حرارة المياه التي تغوص الغواصة فيها عالية تقص ما يشعهُ جسم الغواصة من حرارته . فترتفع الحرارة في الداخل ارتفاعاً لا يطاق ويكثر تصبب العرق من الجسم وقد يبلغ اوقية من الماء في الساعة اذا كان الرجل مستريحاً . وقد يبلغ ثلاث اوقيات اذا كان يعمل عملاً يحتاج الى جهد عضلي كبير . وقد تغلب المهندسون البحريون على هذا باختراع أساليب تمكنهم من نزع الرطوبة من الهواء وخفض الحرارة بوسائل شتى للتبريد

والهواء في الغواصات الحديثة التي تنقل عدداً كاملاً من الضباط والرجال يكفيها مدى ٢٤ الى ٢٧ ساعة دون تجديد . ففي هذه المدة يرتفع مقدار ثاني أكسيد الكربون الى حوالي ٣ في المائة . ولذلك ليست هناك حاجة الى تجديد هواء الغواصة في أثناء السلام وهي تغوص غوصاً مادياً الاَّ اذا أصيبت بكارثة أرغمتها البقاء تحت سطح البحر مدة طويلة

أما في أثناء الحرب ، فالغواصة تطفو على سطح البحر في الليل للتهوية وشحن البطاريات وليتنفس رجالها هواء الليل . ولكن قرب سفن الأعداء من مكان الغواصة قد يقتضي منها الامتناع عن الصعود الى السطح وعندئذٍ لابدَّ من الالتجاء الى أساليب تجديد الهواء

وقد يسأل سائل عن أطول مدة تستطيع الغواصة ان تبقى في خلالها تحت سطح البحر بغير ان يفسد الهواء ويتحتم تجديده . والجواب ان أقصى مدة معروفة هي ٩٦ ساعة . وكان ذلك في الغواصة الأميركية ١٥ — ١ وكان عدد الرجال الذين غاصت بهم ثلاثة وثلاثين رجلاً . وكان ذلك في سنة ١٩١٨ ولم يزد مقدار ثاني أكسيد الكربون في أثناء هذه الغوصة عن ٢ر٤ في المائة ومقدار الاوكسجين عن ١٨ر٢ في المائة

***

ومن أبرع المخترعات الحديثة الخاصة بالغواصات اختراع يعرف باسم « وئة الغواصة » وهو جهاز يركب على الانف والفم فيستنشق الانسان من أحد جانبي الجهاز اكسجيناً نقيًّا بمقدار وينفث تنفسه في الجانب الآخر حيث توجد مادة تمتص ثاني أكسيد الكربون . وعند ما يخرج الغواص من غواصة غارقة الى سطح البحر يستطيع ان يقفل صمامات هذا الجهاز ويستعمله منفرداً معواناً على الطفو وحفظ الجسم من الغرق

الجنديان !

قصة مصرية

بقلم : محمود تيمور بك

كنتُ وصديقي « عزُّوز » إذا طالت جلستنا في القهوة ورغبنا في تناول العشاء قصدنا مطعم « فورفاتلّي » بشارع عدلي ... نفضّلهُ على سائر المطاعم — بالرغم من صغره وتواضعه — لعنايته بإعداد بعض الألوان الإيطالية الأصيلة

وأعلن السنيور فورفاتلّي أنهُ سيحدث انقلاباً في مطعمه يتناول كلَّ شيء فيهِ بالتجديد . وذهبنا يوم الاحتفال بافتتاح المطعم في مظهره الحديث فلم نرَ إلاّ تغييراً يسيراً سطحيًّا ، إذا استثنيتُ امراً واحداً جديراً بالملاحظة ، ذلك بأن السنيور فورفاتلّي رأى ان ينصب على مقربة من باب المطعم دمية من ورق مقوًّى تمثّل سيّداً أنيقاً يحمل في يده قائمة الطعام ، وكانوا يسلّطون على هذه الدمية نوراً كهربيًّا تبدو بهِ بهيجةً تستوقف الانظار !

ووقفت أتأمل هذه الدمية فلم ترقني هيئتها على ما امتازت بهِ من اتقان في الصنعة ومثّل السنيور فورفاتلّي عن كثب منا بحدتنا في تأتها مهيباً ، ويكشف لنا عن مواطن الإتقان والبراعة فيها ويثني على صانعها الفنان أطيب الثناء

كانت هذه الدمية تمثل شخصية السيد المتظرف الانيق «رجل الصالون العصريّ » وأنيس كل حفلة شائقة . ومن منا يجهل هذا الزهوّ المتحذلق وهو يخطر في لبوس المحافل الرسمي ووجههُ الأمرد مستنيرٌ يشبه ابتسامة يختلط فيها الترحيب بالكبرياء . وهذا « المونوكل » المثبت على حُقّ عينهِ ببراعة خليقة بالإعجاب ، وهذه الشملة السوداء ذات البطانة الحريرية البيضاء يبسطها على كتفيهِ في تأنق مصحوب بإهمال مقصود . واخيراً هذه اليد المكسوة بالقفّاز الابيض آخذة بعصاً مفضضة المقبض متلاعبة بها . لبثت أتأمل الدمية وقتاً وقد شغلتني

شخصيتها عن قائمة الطعام الفاخرة في يدها اليسرى ، ولكن السنيور «فورفانتلّي» نبّهني إلى أن عشاء الليلة يحوي غير « الاسبجتي النابوليتانية » صحناً من «الرافيولي» الفاخر . ثم ترك ليستقبل بعض روّاد مطعمه . ومِلتُ على صديقي عزّوز أقول وأنا أشير الى الدمية :

ما رأيك في هذا الصديق الجديد ؟ !

— لقد أتى به السنيور فورفانتلّي ليستقبل ضيوف المطعم . ألا ترى يده التي تحمل القائمة مشيرة الى الباب ترشدنا اليه وترحب ؟ !

— انها طريقة جديدة في تكريم الزوّار كأن اسمه يقول لنا وهو يدعونا الى الدخول : تفضلوا يا سادة ، وبالسمّ الهاوي . . . !

وتبادلنا الضحكات ودخلنا . .

***

كنت كلما ذهبت الى مطعم فورفانتلّي » لفتني وجهة ذلك « الجنتلمان » المتنطس بابتسامته الكاسفة ، فيرشق كلٌّ منا صاحبه بنظرة عجلى ، نظرة يتجلى فيها الاحتقار والزراية ، وما هي الاّ ان أحوّل طرفي عنهُ وأنا أحثّ خطاي نحو الباب

وجلست مع صديقي عزوز على مائدتنا المختارة في المطعم نتذوّق حساء « المينستروني » اللذيذ . وبغتةً رفعت رأسي وقلت :

لو كنت حاكماً بأمره لقضيت على هذه الفئة المشؤوم . . .

فقال عزوز وهو منهمك بأكل :

أي فئةٍ تعني ؟

— فئة هؤلاء الجنتلمن المزيفين . . . هؤلاء السادة المتعطلون . . . هاتيك الدُّمى التي تختفي تحت مظهرها الرشيق رؤوساً خاوية لا يملكها إلاّ الصلَف والازدراء بالناس . . .

فأجابني عزوز وهو ما زال منكبّاً على حسائه :

لا تنس ان هذه الفتة هي زينة حياتنا الاجتماعية العصرية ... ! !

وأقبل علينا السنيور فورفانتّي يستطلع رأينا في حساء « المينسترون » وقبل ان نجيبه بكلمة انطلق لساننا بحديث كأنه السيل الجارف يعف محاسن هذا الحساء وجودة طبيه ...

***

وصادفت عزّوز مساء أحد الأيام في القهوة فبادرني بقوله :

سنذهب الليلة حتماً الى مطعم فورفانتّي .

فقلت له وأنا أخلع طربوشي وأمسح وجهي

ولمَ ؟

— لقد مررت به وأنا في طريقي الى هنا ، فاستقبلني «صديقك الجنتلمان» وقرأت في قائمة الطعام التي يحملها في يده ان عشاء اليوم يحوي لوناً من « اللازانيا »

— اللازانيا ... إنها لذيذة ... !

— لذيذة جداً ...

— ولكن ...

— ولكن ماذا ... ؟

— ليس لي رغبة في الذهاب ... !

— كيف ... ألستَ جائعاً ؟ !

— جائع ... ولكنني ... ولكنني أفضّل أكلةً طريفة من الطعمية والفول ...

— لقد سقم ذوقك بلا ريب ، أتفضّل الطعمية والفول على اللازانيا .. ؟ !

— وماذا في ذلك ؟ !

أتذكر أنك كثيراً ما طلبت من السنيور فورفانتّي هذا اللون من الطعام

— هذا صحيح ... ولكني لا أحسّ الليلة رغبة في تناوله ...

وأصررت على رأيي فلم أرافقه

***

وقلَّ اختلافي الى مطعم «فورڤاتلي»، فكان صديقي عزُّوز يعجب من انصرافي عنهُ، وزهدي فيهِ، ويسائلني في ذلك، فأزعم له ان المطعم — منذ تجديده — قد فقد طابَعهُ القديم، وفَقَدَ مع هذا الطابع ميزتهُ في جودة الطهي وإرضاء روَّاده، فكان عزُّوز يحتجُّ على هذا بقوله:

إني أرى المطعم — على عكس ما تقول — يزداد اتقاناً لألوانه، وكذلك استطارت شهرته

وخرجت مرَّة من المطعم، وبينما كنت مارًّا عن كثب بالجنتلمان إذ عثرت قدمي وكدت أسقط على الرصيف سقطة لا تخلو من خطر لولا ان أدركني عزُّوز فاعتدلت في وقفتي وأنا أصلح من شأني، ووقع بصري على «الجنتلمان» وهو ماثل في وقفتهِ الأرستقراطية المتعذلقة، فاذا هو منطلق الوجه في بشر وانتصار وراعتني منه ابتسامة لم أفهمها على ثغره في هذا المظهر الساخر قبل الآن. وخيَّل اليَّ ان شفتيهِ تتحركان بغمغمة: ما أشدَّ غباوتك من رجل غفل. وشملني اعتقاد راسخ بأن هذا «الجنتلمان» كان سبب سقطتي... أتكون قدمهُ اليمنى في حذائها اللامع الأنيق قد امتدت في طريقي فأعثرتني. او تكون تلك العصا المعقوفة ذات المقبض الفضي قد استطالت واعترضت قدميّ... ودنوت منهُ وقد رفعت يدي لأهوي بها على صدغهِ المصفَّر... ولكنني وجدتني انتزع قائمة الطعام من يده وانهال عليها أمزِّقها شرَّ ممزق...!!

منذ ذلك الحادث لم تطأ قدمي مطعم «فورڤاتلي» وقابلت «عزُّوز» يوماً فعمل اليَّ خبراً خطيراً. ذلك ان السنيور «فورڤاتلي» أفلس، فلقد كان ممن يضاربون في السوق المالية، فأصابتهُ نكبةٌ راجحة، فاضطرَّ أن يُغلق مطعمهُ، ورأيتني أفاجئ صديقي بقولي:

والجنتلمان؟

إن مصابي في المطعم أكبر من أن يجعلني أهتمُّ بهذه الدمية..

— ولكنك تسلم على الاقل ما حلّ بمتاع السنيور فورفاتلّي .. ؟

— علمت أن كلّ ما يمتلكه في المطعم قد بيع بالمزايدة ..

ولم أُطل معه الحديث في هذا الشأن ، وفي اليوم التالي قصدت الى المكان الذي كان يشغله المطعم ، وطفقتُ أسأل البوّابين والجيران عمن اشترى « الجنتلمان » فلم أحظ بجواب ...

وتركت المكان وأنا مغيظ ...

***

وتوالت الايام ، وبينما كنتُ مارًّا في حارة « جامع البنات » أمام حانوت « كوهين الورّاق » إذ رأيت شبيهي وجهاً لوجه أمام « الجنتلمان » فبُهتُّ ، وأحسستُ لحظةً حيرةً وارتباكاً ، ولكن سرعان ما تزايل ذلك عني وألقيتُ بنظرة متفحّصةٍ عليهِ فوجدتهُ يحمل في يده اليسرى لوحاً من الورق المقوّى مثبتة فيهِ بطاقات زيارة في أشكال مختلفة وخطوط شتّى . وكان كمهدي به يتدلى لبوس السهرة وعلى كتفيه تلك الشملة الثمينة ملقاة في إهمال مقصود وما زال قابضاً بيده اليمنى على عصاه الثمينة ذات المقبض المفضّض . كان هو هو ذلك الجنتلمان الارستقراطيُّ عريس الصالون العصري ... ولكنّ شيئاً واحداً لحظتهُ لم أعهدهُ فيهِ من قبل ، شيئاً راعني وأشعرني بإحساسٍ غريب ، هو تلك النظرة التي يرنو بها للناس . لقد تضاءلت لمعتها الوهاجة المنطوية على الزهو والصلف . أما وجهه فقد شاع فيهِ الخجل والسقم واكتسى بطابع الأسى وخُيّل اليّ وأنا أتفحصهُ انهُ كان يزيغ ببصره عني ليتجنب مواجهتي . وكأنهُ يتململ في وقفتهِ ضجراً ... فابتسمتُ وقد انكببتُ على بطاقاته أتفرج وأنا أهمهم : يا للحظ العاثر من مطعم فورفاتلّي الفاخر في شارع عدلي الى ورّاق صغير في حارة جامع البنات » ... !

وداعبتُ بعصاي عصاه فشعرتُ بها تهتزُّ في يده على وشك ان تتحطم فتركتهُ ومضيت في طريقي ...

لا أدري ما الذي دفعني الى ان أكثر تردادي على حانوت « كوهين » الوراق ، فأجعلهُ مكاناً مختاراً أقضي فيهِ بعض الأصائل . لعلهُ ذلك الجوُّ القديم

الذي يشمل حارة « جمع البنات » وملحقاتها حيث يطيب للمرء أن يستعيد ذكريات الماضي الحبيبة . . . أو لعلهُ شيء آخر لم أستبنهُ . وعلى أية حال فإني لا أنكر أنهُ كانت تخلو لي جلستي على المقعد الخشبي الخشن أمام الحانوت أرشف القهوة وأدخن على مهل ، وغير بعيد عني صاحبنا « الجنتلمان » في وقفته التي لا تتغير يحمل على مضض وكرهٍ منهُ لوح البطاقات يعرضهُ على المارين . وكنت أمضي وقتي صامتاً أراقب دخان لفافتي ثم أتراخى في جلستي وأطبق جفني حالماً فأحسُّ أن «الجنتلمان» يهمس مهمهماً بألفاظ لا أتبينها . ثم يتوضح رويداً حديثهُ فأرهف لهُ السمع فاذا به يروي نبذاً من تاريخ حياته — قصصاً جديرة بالتسجيل يصف بها مغامراته الغرامية وصوراً طريفة من حياة العالون ومراسمه لا تخلو من مبالغات وأكاذيب كان يرويها لبقاً في صوت المتأمر المزهوّ . ولكن كثيراً ما يخونهُ صوتهُ فيضعف متزايلاً في لهجة أشبه بلهجة الاسترحام واذا بوجهه يزداد شحوباً وقامته تتقوّس و« المنوكل » يهوي عن عينه ورأسه يميل على صدره وقد غمره صمت شامل . . . فأصحو مرتاعاً . ولا أكاد التفت اليه وتتلاقى عيوننا حتى أحسّ رجفة تسري في جسدي فأقوم التمس الطريق في العتمة القبلة

***

وكنا في مستهل الصيف فتهيأ لي الرحيل الى رأس البر وأقمت فيه نحو شهر ولما عدت قصدت الى دكان الوراق فلم أرَ صاحبي « الجنتلمان » في مكانه المألوف فسألت «كوهين» عنه فأخبرني وهو لم يغادر مقعده أمام مكتبه وأنفه القوّس الطويل يعبث في دفتر الحساب وقال :

لقد ضقنا ذرعاً به . طالما شكا المارة منه زاعمين أنهُ يشغل حيزاً كبيراً في الحارة فيعوقهم في الغدوّ والرواح

— وماذا صنعتم به . . . ؟

— بعناه . . .

— لمن ؟

— لشخص لا أعرفهُ ... رضي ان يدفع لي مبلغاً حسناً ثمناً لهُ

فتركت الحانوت على الاثر وأنا ضيق الصدر وقد تجلت أمامي صورة ذلك السيد الارستقراطي الأنيق وهو واقف في سوق الرقيق تقاقلهُ الأيدي كتاع غث رخيص وقد ستر وجهه بطرف شملته ليخفي نفسه عن أعين الشامتين ... في حارة « جامع البنات » ...

وانقضت بضعة أشهر كدت أنسى فيها حوادث صاحبي « الجنتلمان » وبينما كنت أمرُّ بحارة « بين الصورين » في « الوسكي » إذ شعرت أن يداً تأخذ بطرف سترتي ، فالتفت فلم أر إلاَّ كومة من الملابس البالية موضوعة على شبه مشجب أمام حانوت من حوانيت بيع المتاع القديم ، فلم أعتن بالأمر ، واعتزمت مواصلة سيري ، غير أنهُ استرعى نظري على حين بغتة شيء يشبه اليد في قفاز أبيض قذر قد ظهرت من بين الملابس ، وتصور لي أنها كانت تضطرب ، كأنها تستوقفني ، فمدت أدراجي وقلبي يدق ، ومضيت على الفور أرفع كومة الملابس عن المشجب فبان لي رويداً صديقي « الجنتلمان » . يالله ما أشدَّ شحوبه ، وما أكثر تجاعيد وجهه ورأيته كأنهُ يتنفس الصعداء ويحاول أن يرفع قامتهُ المقوسة التي حناها وأذلها وقر تلك الملابس القذرة ... وقفت أتأمله في حسرة وحيرة لا أجد من نفسي الشجاعة على الدنو منهُ . لقد كان كلُّ شيء فيهِ ينطق بالبؤس والفاقة . شملة ممزقة ، وكسوة قذرة حاكت فيها يد التخريب .... وعصاه الثمينة لم يبق منها غير مقبضها الفضي الحائل حرص على أن يبقيه في يده ذكرى لحياة العز والسؤدد .... « والمتوكل » ؟ لم أرَ لهُ أثراً ... ولكن كل ذلك لم يعد شيئاً مذكوراً اذا وازناه بما دهم عليه ... يالله القدر القاسي . لقد أصبحنا مثقوبتين فهل فقد حاسة الابصار ؟ ... وأخيراً وجدتني أدنو منهُ بخُطا هينة ثم أطبقت يدي على يده وضغطت أهزها في حنو وإخلاص فأحست شفتيه تختلجان بابتسامة مكتئبة وكأن جفنيه قد انطبقا وانحدرت منهما قطرتان لامعتان ...

وفي لحظة ألفيتهُ ينهار أمامي ويصبح كومةً من الاسمال !!

انتهى

المساحة المصرية

المستشار الفني لمصلحة المساحة والمناجم المصرية

سيرته ومؤلفاته

للدكتور احمد موسى

في اليوم الحادي عشر من شهر يوليو الفائت في نحو الساعة الخامسة عشرة — الثالثة بعد الظهر — انتقل الدكتور جون بول Ball الى عالم الخلود بعد حياة حافلة بالعمل الجليل قضى منها في خدمة مصلحة المساحة والمناجم المصرية نحو الثلاثة والاربعين عاماً [1]

ولولا الحرب الدائرة الرحى واستئثارها باهتمام الناس لكان لوفاة جون بول صدى بعيد المدى نظراً لمكانته الرفيعة وخدماته الجلية للجغرافيا والجيولوجيا وعلم الآثار ، ولكان نعيه سبباً في نشاط علمي كبير يتناول كل ما ذكر من العلوم والبحوث

وهو الابن البكر لابنيزر بول Ebenezer Ball من دربى ، وقد تزوج وهو في سن السادسة والاربعين من صغرى كريمات الوجيه جيمس رسل وايت J. R. Waite ، وله منها ولد وحيد كان طياراً في انكلترا ثم انتظم في سلاح الجو البريطاني في الحرب الحالية

قضى الدكتور بول كل حياته في خدمة العلم بالسفر والارتحال والمشاهدة والدرس والفحص ، ثم في تسجيل ما درس وعاين تسجيلاً دقيقاً

وتلقى الفقيد علومه العالية في كليتي العلوم والمناجم بلندن ، والتحق بالاكاديمية الملكية للمناجم في فرايبورج Freiburg ، كما انهُ قضى وقتاً ليس بالقصير في جامعة زوريخ بسويسرا ثم اشتغل عملياً بشركة فينكس الكبرى Phoenix واشترك في وضع تصميم جسر (كوبري) بارتس بانكلترا

---

(١) ولد الدكتور بول في ١٥ يناير سنة ١٨٧٢ والتحق بخدمة المساحة المصرية في ١٧ سبتمبر سنة ١٨٩٧ اى انه عاش ثمانية وستين عاماً وأربعة اشهر وخمسة وعشرين يوماً

وأول عمل مارسه كان في آيل أوف مان Isle of Man وهي جزيرة في البحر الذي يفصل أرلندة عن انكلترا ، ثم واصل التعليم في المانيا وأسبانيا دون ان يضيع الفرصة التي أتيحت له ، فتعلم الالمانية والأسبانية عامي ١٨٩٥ و ١٨٩٦

وفي ١٧ سبتمبر عام ١٨٩٧ عيّن في مصلحة المساحة المصرية التي بدأ الدكتور ليونز بتأسيسها . فهو دعامة متينة في بناء المصلحة . كما حمل تبعات منصبه بقطنة وجد وأمانة فيما له علاقة بطبقات الارض والجغرافيا واشترك في بعثاتها التي تولّت البحوث العلمية في شبه جزيرة سينا وأراضي مصر والسودان ، ثم ندب للعمل في وزارة الاشغال على ترميم أساس معبد فيليه قرب اسوان في عامي ١٩٠١و١٩٠٢ فأنعم عليه وقتئذٍ بالنشان المجيدي تقديراً لعمله

وفي أثناء الحرب العالمية الماضية انضم الى هيئة حراسة الحدود المصرية وهي التي قامت بأعمال المساحة المتعلقة بالاغراض الحربية في صحراء لوبيا ، كما أعدّ كثيراً من الخارطات الحربية فضلاً عن الخارطات التي أفادت منها البعثات الساحية فيما بعد . فضلاً عما أداه من الخدمات للحكومة البريطانية في بحوثها بأراضي الصومال وبلاد العرب ، ومساهمته في مشروع تنظيم الخط الجوي البريطاني من مصر الى بغداد ذهاباً وعودة في سنة ١٩٢١

ولم يكن الدكتور جون بول قعيدة على كرسي الوظيفة بين جدران المصلحة ، بل كان جوّاباً جوّالاً فطاف أنحاء مصر شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً باحثاً ومنقباً في كل جدير ببحثه او خليق بتنقيبه او قمين بدرسه

وناهيك بسفر الصحراء وما يتكبده صاحبه من مشقة ويتحمله من اعياء وتعب . فلم تكن طرقها بالممهدة على ما نراه الآن ، ولا معالمها بالموثوق بها في دلالتها كما استجد الامر بعهدنا هذا ؛ فكثيراً ما انتهكت قواه ولمس الاخطار وتعرض للهلاك مرات ومرات ؛ فقد طوى الفراسخ على ظهور الآبل القلص ، وسيراً وسرى على الاقدام

***

كان الدكتور بول متعدد النواحي في علمه ذا مؤهلات ممتازة ومعين ذكاء لا ينضب فادراً على العمل وتطبيق العلم عليه حتى اجازته بضع كليات بأعلى رتبها العلمية فكان دكتوراً في العلوم D. Sc. ودكتوراً في الفلسفة P. H. D. وعضواً في معهد المهندسين المدنيين M. Inst. C. E. وزميلاً للجمعية الملكية للمناجم A. R. S. M. وعضواً في الجمعية الجيولوجية بلندن F. G. S. وعضواً في الجمعية الجغرافية الملكية بها F. R. G. S. وعضواً نظيراً في غيرها من الجمعيات ، وأنعم عليه بوسام O. B. E.

واليك بياناً وافياً بآثاره

١ — (طبوغرافية وجيولوجية الواحة الخارجة) طبع بولاق سنة ١٩٠٠ صفحاته ١٦٦ و٣٥ رسماً وخارطة قدمهُ بفذلكة عن جهود من سبقوه من العلماء امثال هوسكينز Hoskins وتيتل Zittel وشوابنفورت Schweinfurth وبروجش Brugsch وجولينيشف Golenischeff وليونز Lyons وبه وصف دقيق للطرق المؤدية الى الواحة ولموقعها وللآثار والمعابد والمدن القديمة، وكذلك الحصون الرومانية وبقايا الآثار المسيحية والعيون والآبار فيها، هذا الى جانب تحديد موقع الواحة وأثر العوامل الجوية فيها

٢ — (بعض النتائج الأولية لطبوغرافية وجيولوجية جبل جرّه وواحة فرفر) طبع بولاق ١٩٠٢، صفحاته ٤٠ و٧ خارطات ورسوم. ولقد امتازت هذه الرسالة بتعريج المؤلف على الناحية الاجتماعية والحياة الزوجية في تلك الواحة

٣ — (طبوغرافية الواحة البحرية وجيولوجيتها) بولاق ١٩٠٣ صفحاته ٨٤ و١٠ خارطات ورسوم واشترك معهُ في تأليفه بيدنل Beadnell وصف فيه الطرق المؤدية الى الواحة وطبيعتها وموقعها والآثار والمعابد فيها

٤ — (الشلال الاول أو شلال اسوان بولاق) ١٩٠٧ صفحاته ١١٣ و١٣ لوحة و٢٠ صورة وصف فيه موقع الشلال وصلة اسوان بالجغرافيا القديمة وما قيل عن هذا الشلال في المؤلفات السابقة له

وضمن الصور ما يبين خصائص الصخور خصائص ميكروسكوبيًّا وهي موصوفة وصفاً علميًّا دقيقاً

٥ — (طريقة جديدة في مسح الشواطئ) بولاق ١٩١١ صفحاته ٤٦ و٣ لوحات وأربعة اشكال وهي رسالة طريفة طابعها علمي بحت بالنظر الى ما تناوله المؤلف فيها من القوانين والجداول الرياضية والهندسية والقياسية

٦ — (نيزك النخلة البحرية — مركز ابو حمص بحيرة) بولاق ١٩١٢ صفحاته ٢٠ و٣ لوحات وخرائط. وهو وصف شامل للنيزك الذي سقط في نحو الساعة التاسعة من صباح ٢٨ يونيو سنة ١٩١١، ولنيره باماكن اخرى

٧ — (جغرافية الجنوب الشرقي للقطر المصري وجيولوجيتهُ) طبع بولاق ١٩١٢ صفحاته ٣٧٧ و٢٨ لوحة وخارطة و٦٢ شكلاً ورسماً، وهو مجهود علمي شاق يتشابه

مع سابقيه من حيث الدقة العلمية إلا أنه أكثر تعمقاً وأوسع أفقاً

٨ — (مواقع الفوسفات) بولاق ١٩١٣ صفحاته ٦ وخارطة . وهي رسالة لبيان مواقع هذا الملح في الأراضي المصرية

٩ — (طبوغرافية منطقة الفوسفات في سفاجة وجيولوجيتها) بولاق ١٩١٣ صفحاتها ١٩ و ٤ لوحات وهي رسالة وصفية لهذه المنطقة الواقعة بالصحراء الشرقية المصرية

١٠ — (جغرافية غرب سينا الوسطى وجيولوجيتها) بولاق ١٩١٦ صفحاته ٢١٢ و٢٤ لوحة وخارطة و٥٤ شكلاً وصورة فوتوغرافية . وهو من الكتب الشاملة ، يقع في سبعة أبواب : الاول وصف عام للطرق المؤدية الى وسط سينا وللآثار والسكان . والثاني أعمال المساحة الجيولوجية . والثالث الوديان وما اليها . والرابع الجبال والتلال . والخامس للمنطقة المحصورة بين زنيا والسويس . والسادس للجيولوجيا الاستراتيجرافيكية Stratigraphical Geology والسابع للجيولوجيا الطبيعية Physical Geology,

١١ — (تقرير عن أعمال تفتيشية على آبار معينة في الواحات الخارجة) غير مطبوع (١٩١٧ يقع في ١١ صفحة فولسكاب بالآلة الانكليزية الكاتبة) . وصف فيه نحو الستين بئراً في تلك الواحات واعتقد — بعد ما علمته من اهتمام وزارة الزراعة المصرية بمسألة تعمير الواحات والعمل على إمدادها بالماء — ان ما جاء في هذا التقرير من أنفع ما كتب في هذا الشأن حتى الآن

ولعلنا نطمع في أن تعنى وزارة الزراعة بدراسته في المستقبل القريب

١٢ — (تقرير عن مناطق الزيت في الصومال البريطاني) بولاق ١٩١٨ صفحاته ١٧ و٧ لوحات وخارطات . اشترك في تأليفه المستر طمسون Thompson

١٣ — (مذكرات عن الأعمال البحرية الجديدة) بولاق ١٩١٨ صفحاته ١٣ ولوحتين واشترك في تأليفه المستر طمسون Thompson

١٤ (كتاب الاسطرلاب المنشوري) بولاق ١٩١٩ صفحاته ٢٨٠ . واشترك في تأليفه نوكس — شو H. Knox-Shaw . والاسطرلاب آلة فلكية قديمة تستخدم في قياس الزوايا التي بها يمكن تحديد خط الطول وخط العرض لمكان ما . والكتاب جداول في غاية الدقة ، لها مقدمة تفسيرية

١٥ — (مذكرات عن تحديدات حديثة لمواقع جغرافية في صحراء ليبيا) بولاق ١٩١٩

صفحاتها ١٥ . وهي نتيجة البحث الذي تمَّ في أثناء الحرب بين سنتي ١٩١٥ — ١٩١٨ . تكلم فيها عن وادي النطرون والنمرة والصحراء الواقعة بين مرسى مطروح وواحة قارة وما حولها وواحات السلوم وواحات سيوة وجغبوب وفرافرة والخارجة والداخلة والكفرة وبير الطرفاوي وعين هذه المواقع جميعها بالدرجة والثانية

١٦ — (اطلس الجداول الاسطرلابية البيانية) بولاق ١٩٢٨ . وهو شامل لخمس لوحات كبيرة

١٧ — (مد مرسى مطروح بالمياه) وهي الرسالة رقم ٤٣ طبع مصلحة المساحة بالآلة الكاتبة . تشمل ثلاثة اشكال اخرى مأخوذة بالآلة الفوتوغرافية وبها جدول وثلاث لوحات

١٨ — (على هامش جغرافية مصر) بولاق ١٩٣٩ صفحاته ٣٠٢ و ٩ لوحات وخارطات و٤٢ شكلاً ورسماً وهو كتاب شامل لخلاصة دراسات وافية وبحث طويل قام به المؤلف في المرحلة الأخيرة من حياته . قدم له بنظرة عامة في تكوين الأرض المصرية في الحقب والمراحل الجيولوجية المختلفة . ثم تناول خط سير النيل ومجراه وشاطئيه بالبحث المستفيض كما عالج تطورات المستوى الأرضي والبحري ومنطقة السد حيث توجد بحيرة كبرى . جاء في تسعة ابواب تامنها مخصص للفيوم وبحيرتها . ولم يفت المؤلف ان يبين لنا آراء غيره ممن سبقوه فذكر علماء أمثال Schweinfurth, Whitehouse, Linant de Bellefonds, Jomard , Beadnell , Grenfell & Hunt , Haubury Brown , Flinders Petrie و Sandford & Arkel وزود هذا المؤلف النفيس بخارطة بين عليها أسماء المدن في عصر البطالسة وما يقابلها في هذا العصر فضلاً عن البيانات الطبوغرافية للاراضي

١٩ — (آراء قدماء المصريين في الكون) انتهى منه المؤلف وعاجلته المنية قبل طبعه فهو آخر ما كتب ويقع في نحو ٣٥٠ صفحة

ولا يسعنا الكلام عنه قبل درسه ولكنه على كل حال من خيرة ما كتب كما أفادني عن ذلك حضرة صاحب العزة الأستاذ حسن فؤاد بك المراقب العام لمصلحة المساحة وهو الذي أخذ على عاتقه ابراز هذا الكتاب بالقدر الذي يناسب قيمته وقيمة مؤلفه

مصلحة المساحة : مصر — احمد موسى

مختارات من «مي»[1]

رحمةُ الله عليها

ونعمنا اللهُ بما خلقتهُ من أدب رفيع

١ — عند قبر أبي الهول[2]

الأفق واسع واسع، والليل عميق عميق، وأنوار المساكن وأضواء الشهب في أحشاء الدجى جراح وحروق، وأصوات المدينة تحدث عن أوصاب المدينة جاهلة ما عداها، لذلك جئت انشد الاختلاء والسكينة وراء تلال فصلت بين عمران تبشر الفاج المقيَّد وعمرانك المستقلّ في حضن السكوت غير المتناهي تتسالى على البسيطة شعوب ودول. تأتي بالاهين والشرائع واللغات والعادات وتتبارى هازئة في محق عمل الاجيال زلازل وبراكين وأعاصير وصواعق وأوبئة وثورات ونزاعات وطوفانات — وأنت هنا رابض أمام اهرامك انتصبت في وجه القضاء تنقض أحكام القضاء. والهيا كل تلتقي بين يديك حديث الدهر بألفاظ الحجر والصوان وتعزّزه بصور الارباب والملوك والسكاة. وكأن ما نزل بها من العاديات بعض تلك الصور المنيلة خطابها بلاغتهُ وروعتهُ

ها هنا تربض فريداً على وثير الرمال في مملكتك الفيحاء، مملكة الكتمان والايمان والجلال، وعظمة القياصرة حديثة النعمة دميمة حيال عظمتك المجردة الرفيعة. والانسان المتطاول الشغوف بهتك الاستار يدخل ايوان وحدتك السني ولكنك في غيبوبتك غير منظور لهذه الاشباح الفانية، وغير ملموس لهذه الايدي الذبابية المتنقلة على مخاليك ومكيك مزاحاً واستقصاءً

غير ان الانسان ليس بالماوح المستقصي خبثهُ، بل هو خصوصاً اللاعب المتألّم. يتناوله من الكون قهراً دوّار الفواجع والنوائب فيدرك ان الثبات العام منسوج من الوجل والاضطراب، وان البقاء الظاهر مصنوع من التغير

(١) توفيت ظهر الاحد الموافق ١٩ اكتوبر ١٩٤١

(٢) نشرت أولا في العدد الثاني من جريدة السائح التي تصدر في أميركا

والتحول . يدرك مأساة الكفاح بين الحرية والقدر . يدرك ان عجائب القوى تسبح جزافاً في شلال الدراري والانسال الجارف الآلهة والمحاربين والشارعين والقديسين والانبياء والقتلة والقتل سواسية . يرى التعاسة على طريق العروش والصوالجة والتيجان تختلط بقيود المجرمين . يرى الاعراس والجنازات والمواليد والوفيات يتخللها الموز والبطر ، والمرض والعافية ، والخيانة والامانة ، والدعوى والتطير ، والضلال والهدى . وازاء ما يفطره ويعذب سواه يظل الكون على ما هو والخلائق والاشياء تتوثب فيه وتتولد كالمياه الرهوة الرجراجة وكل ما خال منها وشيكاً كان نهاية تعقبها بداية ، وانقاضاً تستوي عليها الأنس

واذ يزفر طالباً لحوادث تفسيراً يقال له « هذه هي الحياة ! » « ما هذا الا الحياة » « لا تكون الحياة الا كذا » نعم يا أبا الاهوال الساهي ، ازاء الهبة والحرمان ، والوفاء والغدر ، والبياض والسواد ، والفخار والمذلة ، والغلبة والاندحار ، ازاء كل مسرة وكل توجع التفسيرُ واحدٌ لا يتغير : انا نفسر الحياة بالحياة ، ونداوي داء الحياة بفصل الحياة ، ونهرب من الحياة لنحدنا والحياة وجهاً لوجه

***

وانا صورة من ملايين الصور الحيوية نبعث لتفهم الحياة كما نهض جميع اولئك الساكنين . وكما وقفت قديماً على طريق طيبة تلقي الاسئلة على العابرين وقفت أسأل أبناء السبيل عن معنى الحياة . فقال أحدهم « هي صدر الأم »

فالتصقت بصدر أمي فاذا أنا منه في عش دفء وحرارة وحصن مناعة وامان ، لا ترعبني الرياح العاصفة ، والرعود الداوية ، والبروق المعلمة والسيول المتدفقة .

ومرّ يوم فضاق بي صدر امي وعدت الى موقفي أسأل « ما هي الحياة »

فأجاب مجيب «هي الدين والتقوى»

فبادرت أمرّغ جبهتي على عتبة المذبح تحفية اداة التقشف والامانة تحت مزركش الاثواب ، وأقرع صدري مستغفرة عن آثام لم أرتكبها وذنوب لم تخطر على بالي فتاجتني الصور الصامتة في أطرها وهمت لي الصلبان بنكال الحربة والمسامير . فرّ يوم ، وصدر الهيكل الذي كان ليناً عطوفاً انقلب كالمرمر صلابةً

وبرودةً . وصارت الطقوس الدينية ترتيباً مرسحيًّا . وأرواح البحور التي كانت تنزل عليَّ فيض الوحي والالهام غدت مزعجة كعطور تنشرها ذوات الذوق الكثيف فعدت الى مكاني من السبيل سائلة « ما هي الحياة ؟ »

فقال صوت الغرور « وهل هي للفتاة غير التيه والدلال والتشرُّف ؟ »

فضيت أساجل مرآتي فتمشقت صورتي فيها . ولم أكن أفارق تلك الصورة الا لابحث عما يزينها ويجملها . وكان يبكيني مشهد الباكين . فأصبحت وقد تذوّقت لذة اللهو واللعب في نسل خيوط القلوب . ومرَّ يوم فأطل شبح الملل في عيني . فعدت أسأل ابناء السبيل « ما هي الحياة »

فعلا صوت الحضارة في صفير البخار وجلبة الآلات وقال « هي الثروة والجاه العالي وأبهة العمران »

فعدوت في سبيل هذه ، سوى أني لم أصرف ساعة حتى تحجر كياني فعدت واليأس يسحقني أسأل « ما هي الحياة »

سألتُ طويلاً وبكيتُ عزيزاً وقنطت حتى طلبتُ الموت فانبثقت صورةٌ من غور عنائي . لم تتكلم وانما فهمت أن الحياة عندها . أرأيت يا أبا الهول ، النجوم راقصة ؟ بلحظة تحلل ثابت النواميس فرقصت جميع النجوم حوالي وخشعت الكائنات سجوداً لدى من هو شفيعها عند ذي الجبروت ، وتناقلت الموجودات صورة وجه واحد ، أو نقرت بلسع خط من خطوطه وانتحال معنى من معانيه . فاستحدثتْ جميع الاشرقة نورها من تألق عينين اثنتين ، وصارت زوقة الجوّ وبهجة الربيع وملاوة الامواج انعكاساً مبهماً ضئيلاً لتلك البسمة — البسمة البطيئة الرقيقة النادرة . واستدعتني الألوهية الى عرشها فوضعت يدي ويد الباري على لولب الوجود وقتئذٍ واياهُ بادارة حركة الاكوان . فمرَّ يومٌ فقمعت ثورة النجوم وقدمت خضوعها للنظام الأوحد ، وعادت لكل كائن أهميتهُ في الخليقة : فرجعت أسأل العابرين « ما هي الحياة ؟ »

فقال صوت العلم الرزين « أنا الحياة لاني أشرح الحياة »

فألقيت بنفسي في الخضمّ الزاخر أعالج العلم المادي تارة والفلسفة الروحانية أخرى . كم من علم خلقنا ، أيها الفلك ، لنبحث عما لا يعلم ، وكم من لغة أبدعنا

لنشرح ما لا يشرح : فهداني الجهابذة الى القوة التي يتم بها التفاعل الكهربي بين الاجرام العاقة وغير العاقة فلا تفلت من عناقها شيء ولا ذرة : الجاذبية فسألت وما هي هذه الجاذبية ، من رآها ، من سمعها ، من لمسها ؟ أهي وسيط يتنقل على نموذج الأثير ، أم هي سيال يتموّج بنفسه مستقلاً عن العناصر ؟ فأجابوا « ذاك سر الحياة وهو مجهول »

الحياة ! مجهول ! لفظتان تمثلان الانفعال والاتحاد جميعاً

هذه الرمال التي تفرش ربوعك بطرائف ناعمة ، منذ اربعة آلاف سنة ، يا حارس الصحراء ، منذ اربعة آلاف سنة ، والعلم يقلب الذرة الواحدة منها ويديرها ، ويقسمها ويجزىء تقسيمها . لقد أوسعها بحثاً ، ونحرها درساً ، وقتلها تشريحاً وتحليلاً متلمساً علّة تركيبها واللغز المتواري وراء محلها . فصارت جهوده من مجهول الى مجهول ومن استفهام الى استفهام ، وما زال مثلي أنا الطفلة الغريرة يسأل « وما هي الحياة ؟ ما هي الحياة ؟ »

وهكذا طال استجوابي للسابلة فضحك كثيرون ومضوا لانهم لم يفهموا والقليلون الذين وقفوا وأجابوا أرهفوا فيّ اللجاجة والحرقة والأسى

***

يا وليد بابل أم السحر والتعاويذ ، الى أي حقيقة رمز بك الرامزون ؟ لماذا جعلوا بين كتفيك درجات خفية تفضي الى سرداب امتد وتاه في مجاهل الاهرام ؟ لماذا أودعوا قلبك مفتاح باب الغيب حيث كان العرافون يستمعون الآلهة الهواتف ولماذا لا يعرف موضع أصغرك الأجوف منك سوى شفتيك المطبقتين على كرّ الأعقاب

تفتر شفتاك دون كشف واعلان ، أتأكيد هذه البسمة أم ايهام ؟ أإشفاق على دماء الفداة وقد أذيبت فيها الأرواح ؟ أم لأن كل ما هو كائن أقلص من ظل حصاة حيال ما سيكون

هذا نيلك رضاب الطبيعة المحيي عُدّ من منبعه الى مصبه لما يظهره من أريحية ووفاء ، أتدرك معنى احمراره الصيفي ومعنى خصبه ؟ أتفهم معنى شكل هندسي تجلت به اهرامك الخالدة ؟ أنت الذي تحتك الكلدان قبل ان يرسموا

دائرة البروج ، أتعلم هل كانت هذه الاهرام مناثر للصحراء أم مدافن للفراعنة أم حصون دفاع ، أم مستودعات كنوز ، أم مجتمع عشّاق ، أم محفلاً يدين فيه أوزريس موتاه ؟ أتعلم لماذا أدرجت أوراق البردي وأسرارها الهيروغليفية في الأكفان مع المومياءات في قلب التوابيت والنواويس ؟ أتعرف معنى سوسن الماء وزهرات عرائس النيل العائمة على النهر المقدّس ؟ نحن الجهّال نعلم ان جميع هذه رموز الى الحياة المتحكمة فيناء وأنت ألم يبقَ لك ما يكتسب هيبة لتحول عينيك وتسكت سكوتاً لا ينتهي ؟

أم أنت لا ترقب هناك سوى ما ترقب ؟ أترصد حركة الاصبع الوجهة الابرة المغنطة نحو الشمال تجر بعدها النظم الشمسية وهيئات الكواكب ؟ أم تستعرض مواكب الأنوار والظلمات ، وجيوش الثوابت والسيارات وجحافل الامكنة والازمنة ؟ أم أنت تنهجأ اسم الحياة يخطهُ قلم النواميس بحروف الشموس والمذنبات والسدم والعوالم ؟ أم يذهلك تدفق الفيض الالهي من وراء حجب الوجود ليتكوّن اثيراً وهواءً وناراً وماءً وهيولى ؟

نحن مثلك نترقب ونتوقع ونتوقع ونترقب ، فهل تعلم ما هذا الذي ننتظره وتنتظره الآفاق المنحنية علينا ؟ لقد سُجنّا في حالك الظلمات تخترقها خيوط النور حيناً بعد حين ، فنهب نحسبها مقدمة لتحقيق الرجيّة وما هي غير السراب الخداع فيزيد الظلام حلكاً ونلبث في الانتظار مترددين

لقد دفن نصفك في الرمال المثيرة على علاك وما زلت ترقب الشرق وتبتسم ونحن نتزوفا الكوارث وتفتك بنا الدواهي فنظل نترقب ونرجو .

أصحيح ان لغزك لغز الدهور أم خلقك الانسان رمزاً له كما خلق آلهته على صورته ومثاله ؟ لقد أعطاك من الثور الخاصرتين مكمن الغريزة الجوفية الرامزة الى السكوت ، ومن الأسد براثن التحمس والاستماتة في القتال الرامزة الى الجرأة ، ومن النسر الجناحين المحلّقين في بعيد المدى الرامزين الى المعرفة ، ومنهُ — من إنسانيته — أعطاك الرأس مشيراً الى التبصر والارادة المدركة المتغلبة على الغريزة والانفعال والخيال . فكيف يحصر فيك جميع هذه النزعات التي تتجاذبهُ ولا يضيف ما بقي ؟ لماذا لا يكون ابتسامك الدائم صورة الأمل

فتجدد أبداً فيه ؟ أليس أنه مثلك لا فلك مثله ؟ أليس ان في أعماقه أبا هول شاخصاً أبداً في السموات العلى كلما نظر بشروق ليث يتوقع بزوغ كوكب جديد وشروق شمس ساطعة ؟

---

٢ — عائشة عصمت تجرر

... أحصيت الأسباب العمومية لدرس الشاعرة ولكن لديَّ سبباً آخر، وهو مقابلة معنوية جرت لي معها منذ حداثتي القصوى

كان ذلك في تلك البلدة بفلسطين وقد بدا الحي متجلياً ببهجة الأعراس وبهائها لزواج ذلك الوجيه السري . ونُصب سيران عظيم على سطح الدار الواسعة ليقام فيه مهرجان الفرح كل ليلة . فما يخيم الظلام الاَّ وتأخذ تعزف الآلات الشرقية تحت الخيمة الوضَّاءة بتألق الانوار ومعالم الزينات الغاصة بوجوه القوم وأعيانهم من تلك البلدة وضواحيها

إذ ذاك يهرع أهل الحيّ الى الشرفات والنوافذ وسطوح المنازل يتسمعون الى آهات الطرب الشائعة في الفضاء حتى تتهادى أصداؤها نحو ما جاور من جبال الجليل . والأطفال منبطون بأن يحتضنهم صدرٌ دافئ ويحميهم من أهوال الظلام، فتتنبهُ منهم النفوس لتفهُّم أعجوبة الألحان

كنتُ على ذلك في ليلة فاذا بصوت ينشد على نقرة العود :

كحل بعينيك أم صيغ من الرمن جفن من السحر ام سحر من الاجفان
خال بخديك أم صنع من الديان توهمت فكر الأنام في الجفن والخالات[1]

تبارك الله ما أحلاك من انسان

سمعت وأصغيت ليس بنفسي كما كانت صغيرة وقتئذٍ بل بكل قواي الكامنة التي سينميها المستقبل وبكل ما في الأيام التي عشتها وسأعيشها من أهل ويأس وسعادة وشقاء . ولعلي استشعرت ببعض ما سأفهمهُ بعدئذٍ من نجوى الموسيقى

---

(١) كذا في الاصل . أما أنا فاذكره كما كنت اسمعه « توهمت فكر الانام بالعين والحاجب »

الشرقية ... تقول ان الانسان يجهل كيف ولماذا ولد ، ولكنهُ يعلم انهُ يحتاج الى السعادة التي لم يفز بعد منها سوى بفتيت موهوم . تقول للطفل والشاب انهما أكبر سنًّا مما يظنان ، وتقول للقويّ الظافر انهُ ضعيف مدحور ، وتقول لكل أحد ان حياته كانت الى هذه الساعة خالية سخيفة قحطاء . تقول لهُ ان في الدنيا أموراً لم يختبرها وان جهله لها فقر وضنك وذلّ وعبودية وموت سبق الموت . تقول الاجتهاد والجهاد عقيم النتائج لان العمر قصير سريع العطب ، وان كل لحظة يجب ان « تعاش » بأكملها ليستخرج منها أقصى ما تكنّ . تقول ان القلب دويّ بالعبرات ينتظر اليد القادرة تضرب عليهِ ليتفجّر كصخرة موسى . . . واذ تنطلق الاصوات صائحة كالاجنحة في فردوس من الالحان ، ثم تصبح منفجعة منتحبة : ثائرة عاصفة تلج وتتمادى يخيل ان النزع قد جوّف تحتها هاوية تتراءى فيها الاصداء المرتعشة . فتمكف النفس على حاجتها ، ووحدتها وحيرتها بين هذه الهاوية وذلك الفردوس ، وتطلب التوازن والراحة في سحر الحب وذوب الحنان . . . ولكن العمر قصير سريع العطب ، وكل ما فيهِ موسوم بوسمه . . . ولكن الحياة مراوغة في استقامتها ، وشحيحة في كرمها ، وكل ما فيها كريم شحيح مراوغ مستقيم

هذا بعض ما قالهُ لي فيما بعد شريك الاوتار ، فهل فهمت منهُ عندئذٍ شيئاً ؟ لا أدري . ولكن كم ذا انتقش الظلام بالمعاهد الخلابة لذكر ذلك الشخص العجيب الذي لم يكن أحد يعلم هل كان جمال عينيهِ كحلاً أم سبتاً من الرحمن ! ذاك الشخص الذي تاهت بهِ أفكار الناس فتجمهرت لتهتف : تبارك الله ما أحلاك من انسان ! أتتصورون أثر هذا الرسم في مخيلة صغيرة شديدة التيقظ ، وفي نفس ليّنة ترتعش أمام مظاهر الفن والجمال حتى لقد تبكي لمرور سحابة زهية في الافق الازرق

***

ولطالما سمعت هذا « المرائي » بعدئذٍ من منشدين أصوليين وغواة يقبلون عليهِ إقبالهم على جميع الادوار النصرية المشوقة . ولكن أكانوا يعلمون من هي عاهرته

أرجح ان تلك كانت نشوة الموسيقية الاولى فأبقت في أثراً كأنما هو اشارة من روح التيمورية تنبهني. وما تبينت تلك الاشارة الا عند مطالعة ديوانها والاهتداء الى ذلك «المؤال» فيه. فأدركت انها حدثتني منذ زمن بعيد تلك الروح التي غاصت نشأتها الحزينة الطروبة في أرواح المنشدين فبثت على أوتارهم ألحاناً، وانطلقت على أمواج الهواء فنّاً وتغريداً وابداعاً. وهكذا تلك المرأة التي وقعت زفراتها في وحدة خدرها وراء الحجاب، صار الشجن والطرب منها فنّاً تتناقلهُ أجواء الاقطار وتتأثر بهِ ليالي الافراح في نازح الديار

كذلك برقت التيمورية في تلك الظلمة وكان ذلك النور منها رمزاً لنور آخر خطير. ان عائشة عصمت ظهرت حين كانت المرأة في ليل دامس من الجهل فجاءت بارقاً يبشر بحاضر المرأة المصرية ومستقبلها

٣ — كولمبوس

هو هذا الرجل الذي يريد تحقيق ما لم يسبقهُ اليهِ أحد. للناس جميعاً أطماع ومآرب: فهذا يسعى الى الثروة، وذاك يشوق الى الحب، وذلك يرغب في السؤدد والتفوق. القائد يبغي فتح المدينة ظافراً، والملك يسره التفاف الرعايا حول أريكته، والعالم يتفرغ لمعالجة الذرات والعناصر، والمكتشف يودُّ استجلاء سر من أسرار الطبيعة. أما هذا الرجل فقد حلّق فوق كل فاز وكل عظيم لأنهُ انما يريد ان يوجد عالماً جديداً

— هو فقير فارغ اليد، يُنظر اليهِ بالريبة والتحقر لأنهُ غريب في قومه وعشيرته. هو شاذ مجنون لا يشبهه الآخرين. ماذكر الا ارتسمت على الشفاه ابتسامة التأفف والاستخفاف فرجمهُ السافلون بأقذار سفالتهم، ولوّث اسمهُ الخاملون بأوحال خمولهم

أما أنت ذو الفكر النبيل والنظر الثاقب، فتقدم تجد ان هذا الرجل ليس لهُ من بعض المعدمين الوقاحة والتطاول، ولا من الآخرين المذلة والسكتة. في ذلك الوجه تدرك إدراكاً مبهماً معنى العظمة والعبقرية. وعلى تلك الجبهة ترى

وسم المجد وقد حاذته علامة الحزن العميق الذي يرافق المجد في الغالب . وفي تينك العينين تبصر تعاقب التثبت والاستقصاء بنظرة تتنزل فيك وقد توحد عندها غور الهاوية وشروق الوحي والرؤيا . ثم ينسى هذا الرجل ما يحيط به من الناس والأشياء ناظراً الى عمود النور السائر أمامهُ في الفضاء نحو أبعاد قصية نحو شواطىء مجهولة ، نحو خراب سيصير بهمته عمراناً مجيداً

هذا الرجل هو كولمبس الذي قام يحقق ما لم تتخيلهُ كبار العقول على مرور أربعين قرناً . هذا الذي لا بيت له لم تعد تسعهُ القارات الثلاث . والبلاد والرياض والروح التي فنيت فيها ملايين الآجال دهراً بعد دهر ، وتكيفت في رحابها الحضارات والأديان والأنظمة شكلاً بعد شكل قد ضاقت بهذا الذي لا حسب له ولا نسب . فاستعمل فضلة من ذكائهِ للتقرب الى أرباب بلاد أخرى فعطفت عليهِ بزابلاً الاسبانية ملكةُ قشتالة وحبتهُ بسفن ثلاث كاملة التجارة جاهزة المدات فمضى نحو ذلك المجهول المنشود

***

نشر كولمبس شراعه على البحار بيد انهُ ما خطا الخطوة الأولى وراء عمود النور الا وتكشفت له الأخطار والمصاعب، قبله وصل الصينيون الى الحد الأقصى حيث تكاد تتقابل البراكين الاسيوية وبراكين اميركا الجنوبية . فوقفوا هناك ثم انقلبوا راجعين قبلهُ . كاد النروجيون ينتهون الى الجهة الشرقية من أميركا الشمالية فوقفوا هناك ثم انقلبوا راجعين . قبلهُ وصل العرب الى سوبداء الصحارى المائية فأحجموا أمام بحر الظلمات ثم انقلبوا راجعين . أما هو الفرد الواحد فتابع المسير عنيداً . انعقدت لهُ الأيام على صفحة الماء أسابيع وتكونت الأسابيع شهوراً دون ان تقع عيناه على أنس الشواطىء . فتابع المسير عنيداً . الأمواه الكئيبة تحدق بهِ من كل جانب، والوحشة الفيحاء توسع الآفق حواليه، وعمارة السفن يشكون ويتمردون، وتفاد الزاد يهدد بالموت جوعاً ويشير بالعودة. ولكن عزمة الصنديد لم تتزعزع ، وظلت بصيرته ترى ما كلت دونهُ الأبصار وفي وسط الغم واليأس بسمت يوماً أرض الميعاد وراء بحر الشواطىء وتراءى العالم الجديد للعالم القديم الآيس المترقب

٤ — شرر وهبب

حكمة اليوم في مذكرتي: تقول ان الدعة أقدر من الحدة. وكما ان أعظم الدهاء يكون أحياناً في البساطة

***

كيف أشفق على الذي يدّعي أنهُ في الشكاية والتظلم فلا يبقى منهُ ما يستدعي الشفقة! كل شفقتي تتجه اليك أنت الذي لا تشكو مع ان ألمك الصامت لا حدَّ له ولا نهاية

***

هل من سبيل الى حل عقدةٍ تستوجب القطع، وكلما استهلت لتخيوطها من نياط قلبك؟

***

من خساسة النفاق أنهُ يتكلم بلهجة تحاذي الصدق ويتلوّن بلون الواقع المحسوس

***

الألم الكبير تطهير كبير

***

الاختبار والعلم يصقلان العبقرية ولكن لا يقومان مقامها

***

الألم محسنٌ كبير لانهُ يجرّدنا من الغرور والدعوى

***

سؤال صغير كنت أعيده على تلميذ يوم كنت أستمع على مقاعد المدرسة، للكاهن الصالح الذي كان يشرح لنا التعليم المسيحي، وما زلت اردده اليوم بلجاجة أشدَّ وحرقة أعمق: لماذا... لماذا يخلق الله الأشرار؟

***

يحسب بعضهم ان السدود التي يجتهدون كثيراً في اقامتها تكفي لإطفاء نور الشمس وتضييق رحاب الفلك

***

جبّار هو ذاك الذي يكون شعاره في الحياة: «سأتألم ولكني لن أغلب»

الحرب في سنتين (١)

في الوسع تلخيص حوادث الحرب الثانية في ختام السنتين الاوليين وبدء الثالثة، في ان المانيا، على حسن تأهبها طوال سنوات واضمارها الاعتداء كسبت معارك كثيرة ولكنها لم تكسب الحرب، ولعلها أبعد من كسبها في مستهل سنتها الثالثة منها في اواخر سنتها الاولى، وان بريطانيا وحلفاءها على قلة تأهبها للحرب خسرت معارك كثيرة ولكنها لم تخسر الحرب وهي مع حلفائها ومؤيديها أدنى الآن الى كسبها منها في أي وقت مضى خلال السنتين المنصرمتين

كانت الآلة الحربية الالمانية متأهبة للقتال بعد سنوات من الانتاج الصناعي الحربي الكلي وتوسيع نطاق الجيش وسلاح الطيران، وتدريب الفرق المنتقاة على أساليب الحرب الميكانيكية، ومعظم هذه الاساليب جديد مبتكر فكان ينطوي بحكم مافيه من الجدة والابتكار على عنصر المفاجأة، العظيم الشأن في الحرب، من قديم الزمان الى حديثه. فاجتاحت بولونيا في سبعة عشر يوماً والدنمارك والنروج في نحو ذلك وهولندة وبلجيكا ولكسمبرج وشمال فرنسا في سبعة وثلاثين يوماً

فلما سلمت فرنسا وعقدت الهدنة مع المانيا وايطاليا، بدا لكثيرين من متتبعي الحوادث ان المانيا باتت قاب قوسين او أدنى من كسب الحرب. ولا سيما عند ما علم ان بريطانيا خسرت معظم معداتها الحربية الحديثة في سهول فلاندرز عندما أجلت الجيش البريطاني عن دنكيرك. فكان هذا اليقين باعثاً رئيسياً على دخول ايطاليا الحرب (١٠ يونيو سنة ١٩٤٠ وكانت معركة فرنسا قد أشرفت على ختامها وعرفت نتيجتها العسكرية المحتومة) لتظفر بنصيبها من الاسلاب، كما كان باعثاً على امتناع قادة فرنسا، بعد سقوط وزارة رينو عن المضي في المقاومة في افريقية وسائر الامبراطورية وهم لو فعلوا لكان لفرنسا شأن آخر أعظم وأكرم وأجدر بتاريخها وتقاليدها في هذا الصراع

﴿دنكيرك: نقطة تحول في الحرب﴾ غير ان الذين نفذوا الى سر الجلاء عن دنكيرك ادركوا بزكنهم ودقة نظرهم ان هذا الجلاء لم يتم لانهُ اتفق ان كان البحر رهواً في أيام الجلاء (اوائل يونيو ١٩٤٠) بل لان سلاح الطيران البريطاني — وبخاصة قيادة المطاردات — استطاع ان يثبت سيادته على مضيق دوفر فتمكنت مئات السفن البريطانية — من سفن الحرب الى زوارق النزهة والصيد — من أن تنقل ما يزيد على ثلاثمائة الف جندي من الساحل الاوربي الى الساحل البريطاني. ولو لم تفرض المطاردات البريطانية من طراز هاريكاين وسبيفير سيطرتها على تلك الشقة الضيقة من الماء لكانت السيطرة عليها لسلاح الطيران الالماني ولما

(١) نشر الجانب الاكبر من هذا الفصل في مجلة « المصور » ٤ سبتمبر في مقال لرئيس تحرير المقتطف وقد أعدنا نشره بعد ما أضفنا اليه فقرات جديدة يقتضيها المقام تلبية لطلب طائفة من أصدقاء المقتطف

أحدى سكان البحر و نقل الجيش البريطاني ولأتيح للقاذفات والمقنصات الالمانية ان تغرق وتدمر وتعطب جميع السفن التي تحاول ذلك او معظمها

فلما انجلاء ادرك فريق من الخبراء العسكريين ولاسيما الذين يهولون من شأن سلاح الطيران في الحرب الحديثة ان غزو بريطانيا بات غير محتمل في سنة ١٩٤٠ واذا حاوله الالمان باءوا بالخيبة الذريعة . لانهم اذا عجزوا عن الفوز بالسيطرة الجوية فوق مضيق دوفر في اثناء اجلاء جيش مقهور ، فالغالب انهم يعجزون كذلك عن الفوز بها لحماية سفن الغزو . فيتولى البريطانيون تدميرها بالاشتراك بين سلاحهم الجوي وأسطولهم البحري المتفوق الواقف بالمرصاد .

﴿ معركة بريطانيا ﴾ ولكن الالمان ، لم يعبأوا على ما يلوح بهذه العبرة ، اعتزازاً منهم بقوتهم ، وثقة ببأسهم ، وثمة من الأدلة ما يشير الى اقدامهم على الخروج من ثغور البلجيك لغزو بريطانيا قبل بعد من الحملة الا بعض من أقدم عليها وكان معظم من عاد يحمل آثاراً من عواقب اقدامه

كان ذلك فيما أظن حوالي منتصف سبتمبر سنة ١٩٤٠ ، وكان الالمان قد مهدوا له بغارات جوية نهارية واسعة النطاق على سواحل بريطانيا الجنوبية خلال الأسابيع الثلاثة الأخيرة من اغسطس ، ثم على لندن في أثناء شهر سبتمبر ، ولكن سلاحهم الجوي مني بخسارة فادحة في الرجال والطائرات حتى ليقدر ما خسروه في هذه الغارات في شهري اغسطس وسبتمبر بألفي طائرة وستة آلاف طيار ومساعد طيار ، فكفوا عن هذه المحاولة في آخر سبتمبر وأوائل اكتوبر وخسرت المانيا « معركة بريطانيا » او تلك المرحلة من « معركة بريطانيا » ، وصح في رجال الطاردات البريطانية — واليهم يعود الفخر الأول في هذا الظفر البريطاني — قول تشرشل المشهور

Never in the history of mankind have so many owed so much to so few.

والى القارىء بعض ما جاء في التاريخ الرسمي لقيادة «القاذفات البريطانية» عن نصيبها في احباط حملة الغزو قبل قيامها : —

وقد شاع مرة وخاصة في أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٤٠ في اميركا وفي اوربا ان عمارات سفن الغزو قامت فعلاً وان قاذفاتنا تغلبت عليها في عرض البحر وقيل ان تاريخ قيامها كان في ١٥ سبتمبر . ولا ريب في ان موانىء المانيا كانت محتشدة حوالي هذا التاريخ بعدد وافر من الصنادل والسفن وان سفناً كثيرة كانت تملك الاقنية الى الداخل . وجميع هذه السفن قذفت قذفاً قويًّا بقنابل الطائرات . ويبدو مرجحاً ان الغرض من هذه السفن المحشودة كان اشتراكها في المرحلة الثانية من الهجوم علينا . وهو هجوم كانت مرحلته الاولى السعي الى تدمير قواعدنا البحرية والجوية وكذلك اسراب سلاح مطارداتنا والفوز من هذا الطريق بسيادة

الجو . وقد شوهدت الصنادل والسفن الأخرى متجهة الى مواقعها في مستقبل هجوم جوي وذلك اما لتقلع في الدقيقة المعينة في يوم محدد واما لتكون متأهبة بعد انذار قصير الأجل لاستغلال نجاح ما تصيبه الطائرات

أما عدد ما دمر من الصنادل والسفن الصغيرة وعدد ما قتل أو جرح من الرجال فليس له شأن حاسم مباشر الآن . ولكن حقيقة واحدة تبرز واضحة دون الحقائق الأخرى . وهي ان الغزوة لم تتم في الطريق الماضي . وعلى الرغم من أعمال التأهب العظيمة التي جرت وتمارين الغزو العديدة التي توالت مدى اسابيع على سواحل غرب اوربا من اركاشون الى دن هلدر ، ومع ان صغار الصبية كانوا يتبعون الجنود الألمان الى ارصفة الموانىء الهولندية وهم يقلدون بحركة ايديهم حركتها في اثناء السباحة ويخرجون من أصواتهم أصوات الغرق ، ومع ان كل القارة الاوربية وقفت حابسة نفسها منتظرة انباء خروج هذه الأرمادا — ارمادة القرن العشرين — الى البحر — على الرغم من كل هذا لم تبد اشارة من القيادة الالمانية العليا ولم يشن هجوم ما. ولم تكن لتجرؤ على هذا ما دمنا نملك زمام البحر والهواء . وتوالي الأيام طالت الليالي واشتدت غارات القذف على هذه المواقع وليس هناك ريب في ان هذه الغارات بدأت تؤثر في نفوس الجنود الألمان الذين أعدوا لركوب هذه الصنادل وازدادت الموانع التي تحول دون استعمال الموانىء لحشد الجيش الغازي فتعذر تحريك السفن الى مواقعها تحت وابل القنابل وفي حالة الإظلام التي تقتضيها الغارات. وصعب تسيير الجنود إلى متن السفن . وكان غرضنا أن ننشىء هناك حالة من الفوضى ولاريب في أننا أصبنا الغرض وما فتئت خطتنا ضرب العدو في موانئه قبل ان يبحر

فلما كف سلاح الطيران الالماني عن الغارات النهارية الواسعة النطاق في أواخر سبتمبر لفداحة ما أصيب به من الخسارة ولعجزه عن الفوز بالسيادة الجوية فوق مياه المانش وسواحل انجلترا الجنوبية تمهيداً للغزو ، انقلب الى الغارات الليلية على مدائن انجلترا ، بنية ارهاب الشعب وتدمير مصانعه . فلم يفز من الأول بطائل بشهادة جميع المراقبين المحايدين وما أدركه من الثاني لم يؤثر في تعاظم الانتاج الحربي البريطاني الا تأثيراً مؤقتاً . واستمرت الغارات الليلية الالمانية على مدائن بريطانيا مدى أشهر الشتاء الى الربيع عند ما بدأت الطاردات الليلية البريطانية نشاطها الفعال في مقاومة الغيرات الليلية وتحول سلاح الطيران الالماني الى البلقان والجنوب ثم الى روسيا

﴿ الى البلقان وروسيا ﴾ وأدرك هتلر وهيئة أركان الحرب الالمانية ان اخضاع بريطانيا في

عقر دارها بالغزو والغارات الجوية بعيد المنال فوضعت الخطط لاتجاهين حربيين في وقت واحد احدهما تشديد ضرب البحرية بوساطة الغواصات والقاذفات البعيدة المدى والمغيرات السطحية على خطوط الملاحة في المحيط الاطلسي والثاني الهبوط بجيشه الى البلقان والتطرق منه اما الى الشرق الاوسط واما الى روسيا. ولكن المقاومة العنيفة الباسلة في جبال اليونان ثم في جزيرة كريت أتاحت للقوات البريطانية والحلفائية فرصة لاخماد فتنة العراق وتبديد خطرها وانتزاع سوريا من براثن صنائع المانيا النازيين . وكان الجيش البريطاني قد صفى الامبراطورية الايطالية في شرق افريقية فتحولت الصورة الحربية في الشرق الاوسط تحولاً لا يقرى كثيراً بمحاولة تنفيذ الخطة الالمانية فيه . ولعلّ هيئة اركان الحرب الالمانية ، رأت على كل حال ، ان المغامرة في تنفيذ خطة الشرق الاوسط — لو اتيحت لها العوامل المؤاتية — تعرضها لخطر عظيم ما دام المارد الروسي منتصباً في الشمال الشرقي على يدارها يعد العدة ليوم الحساب . ولعلها ادركت كذلك ان العجز عن قهر بريطانيا في النصف الثاني من سنة ١٩٤٠ وعن جرحها جرحاً بالغاً في النصف الأول من سنة ١٩٤١ يعني حرباً طويلة والمانيا لا تستطيع ان تواجه حرباً طويلة الاّ اذا استوثقت من موارد اقتصادية وافرة تمدها في اراضي الاتحاد السوفياتي ولا تجد طائفة كبيرة منها في بلدان اوربا التي احتلتها فكان في هذا الادراك المزدوج مهد الاعتداء الالماني على روسيا

* * *

هذه الحرب حرب كلية تدمج في خططها الواسعة شؤون السياسة بحقائق الاقتصاد والصناعة بقوة الجيوش والاساطيل وأسلحة الجو ويشترك فيها المجند وغير المجند الرجل والمرأة على السواء . واذا كانت المانيا قد أحرزت حتى الآن ظفراً عظيماً في معارك متعددة وأخضعت معظم القارة الاوربية لسلطانها فان مصير الحرب الروسية لا يزال معلقاً في ميزان القدر وعلى الرغم من احتلال اراض روسية شاسعة لم يفز الجيش الالماني حتى الآن بتحقيق هدف واحد من أهدافه الرئيسية في روسيا ، كاحتلال حواضرها الكبيرة ، أو كسر جيشها وشل سلاحه او تدمير كيانها السياسي او استغلال مواردها المستفاة

﴿ الحرب البحرية والاقتصادية ﴾ — فاذا التفتنا من حرب البر الى حرب البحر وحرب الاقتصاد ، كانت لنا ناحية أخرى من الحرب ، كفة المانيا مرجوحة فيها على العموم . فقد خسرت جانباً كبيراً من اسطولها البحري (خسرت بارجتين هما الجراف فون شبي والبسمارك ، وعطبت البارجتان شارنهورست وجنيسنو وخسرت طائفة من الطرادات والمدمرات في معركة النرويج وغيرها) . أما الغواصات فلا يعلم على وجه التحقيق عدد ما خسرته منها لأن الكتمان يحيط هذه الناحية من الحرب البحرية) ، واكتسحت سفنها التجارية من بحار الأرض السبعة

ولا يسير ما يسير منها في مياه أوربا الساحلية الا وهو معرض للخطر . وقد كانت خسارة حليفتها ايطاليا في البحر أفدح ولا سيما في تارنتو (١١ نوفمبر ١٩٤٠) ومتابان (٢٧ مارس ١٩٤١) واكتسحت سفنها هي الأخرى من بحار الأرض السبعة، ولا تسير في البحر المتوسط — بحرنا على قول السنيور موسوليني — حتى ولا في الشقة الضيقة بين صقلية وشمال افريقية ، الا والطائرات والسفن الحربية البريطانية لها بالمرصاد ، وقطع كل وارد تقريباً من وراء البحر عن المانيا وايطاليا والدول الخاضعة لهما

وخسارة بريطانيا البحرية لم تكن يسيرة . فقد خسرت من بوارجها « الرويال اوك » التي ضربتها غواصة المانية في قاعدة سكابافلو (نوفمبر ١٩٣٩) و« هود » (في ٢٤ مايو ١٩٤١) وطائفة من طراداتها ومدمراتها وغواصاتها . ولكن الأسطول البريطاني ما فتىء سيد البحار . وقد عوضت دور الصناعة البحرية البريطانية جانباً كبيراً مما خسره الأسطول وما تم صنعه من البوارج الجديدة يفوق ما خسرته عدداً وتريغاً وقوة (ثلاث بوارج هي جورج الخامس والبرنس اوف ويلز والدوق اوف يورك وقد تكون الرابعة والخامسة من هذه الطبقة على وشك الانضمام الى الاسطول) . وفي كل معركة بحرية اشتبكت فيها القوات البحرية البريطانية كان الفوز فيها للبريطانيين ، وفي معركة متابان لم يخدش طلاء احدى السفن الحربية البريطانية التي اشتركت فيها !

غير ان آية القوة البحرية لا تتجلى في المعارك التي تستوقف الأنظار وحسب . ولكنها تتجلى كذلك في العمل العاجل الذي تنهض به مئات من السفن الحربية الصغيرة ، مدمرات تحرس القوافل ، وكاسحات تكسح الالغام وباذرات تبذرها ، وفي ألوف من سفن تنقل الزاد والعتاد، وأخرى تحرك الجيوش، وهذا عمل دائم اضطلع به الأسطول البريطاني وأساطيل حلفاء بريطانيا الحربية والتجارية على أوفى وجوهه وما قوة الجيوش البريطانية في الشرق الأوسط ومنطقة سنغافورة الا دليلاً قائماً على صحة هذا القول

نعم بلغت خسارة بريطانيا وحلفائها بضعة ملايين من الاطنان في السفن التجارية ، ولكن خطر الغم المغنط أحبط ومعركة المحيط الاطلسي لم تسفر حتى الآن عن قطع « خط الحياة » بين اميركا وبريطانيا بل أجمع الخبراء في العهد الأخير على ان كفة بريطانيا فيها بدأت تميل الى الرجحان . واجتماع تشرشل بروزفلت في « مكان ما » بالمحيط الاطلسي في اغسطس الماضي برهان قاطع على من يسود البحار . وفي كل يوم يدخل الرافىء البريطانية ويخرج منها مئات من السفن الموسوقة

﴿ المدد الاميركي ﴾ هذه الحرب حرب كلية ، قاعدتها العريضة هي الموارد الاقتصادية والقدرة الصناعية . ولبريطانيا وحلفائها أن تعتمد على موارد الولايات المتحدة الاميركية

وقدرتها الصناعية ، اعتمادا على موارد جامعة الامم البريطانية وقدرتها الصناعية . والانتاج في جميع هذه البلدان — ولا سيما الولايات المتحدة الاميركية — لم يبلغ حده الاقصى بعد ، بينما الانتاج في المانيا والبلدان المحتلة التي تنتج لها بلغ حده الاقصى أو كاد

فمستقبل هذه الحرب ، عندود بعوامل شتى ، جميعها تعمل فعلها ضد المانيا ، وفي مقدمة هذه العوامل : اولاً — مد الانتاج الحربي الآخذ في الارتفاع في بريطانيا والولايات المتحدة ومن يواليهما . وثانياً — الاضطراب النفسي في صدور الشعوب الاوربية المقهورة ، وعدم استتامتها الى الذل والحرمان . وثالثاً — تفتح العيون والنفوس على أن النظام الذي يريد هتلر ان يقيمه في اوربا — بله في العالم — ينطوي على انكار جميع القيم الروحية في المعراث التي هبط بها الوحي على الرسل الكرام ولغنيها الشعراء وفصلها الفلاسفة . وهذا التفتح من شأنه ان يذكي البرم والقلق في نفوس الشعوب المغلوبة على أمرها وتعزيز عزم الدول التي ما فتئت حرة على مناصرة الدول والشعوب التي تناهض النازية و «نظامها الجديد»

﴿ كيف تنتهي الحرب ﴾ أما كيف تنتهي الحرب وما السبيل العملي الى ذلك وحتى ، فمن يدري ؟ ولكننا نستطيع ان نتصور ما يأتي : — ١ — استنزاف جانب كبير من قوة المانيا الحربية في بطاح روسيا اذا مضت روسيا في مقاومتها الباسلة العنيدة وكذلك بفعل الحصر البحري وغارات القاذفات البريطانية على مصانع المانيا ومواصلاتها ٢ — نقمة الشعوب المغلوبة المحرومة — ومنها جانب من الشعب الالماني نفسه — حتى تصبح كالموجة الطاغية ٣ — ارتفاع مد الانتاج الحربي في بلدان جامعة الامم البريطانية والولايات المتحدة الاميركية ارتفاعاً يمكن القوات الديمقراطية المسلحة من التفوق تفوقاً حاسماً على القوات النازية المسلحة ٤ — فوز سلاح الطيران البريطاني بسيادة تامة فوق غرب اوربا تمهد لقوات الحلفاء البرية طريق غزوة اوربا مستعينة بالشعوب الثائرة المنتظرة وصول منقذيها

ومن الجائز — في رأي بعضهم — ألاّ تقوم ضرورة لغزو أوربا بالجيش ، على شرط انشاء سلاح جوي للحلفاء ، يستطيع امتلاك ناصية الجوّ في جميع النواحي في غرب أوربا وشرقها وجنوبها الشرقي . واذا كثرت فيه الطائرات التي تقتلك بالدبابات — مثل الطائرة الاميركية « ايراكوبرا » — تغلبت على الدبابات الالمانية بغير منازلتها على سطح الارض . وهناك فريق آخر يرى أنه لا بدّ من التفوق على الدبابات الالمانية بدبابات أكثر منها وأقوى وهؤلاء لا يرون مناصاً من غزو القارة الأوربية عندما تجتمع الوسائل الكافية لذلك والتفوق الميكانيكي في الناحيتين متاح للحلفاء بمعونة الولايات المتحدة

لقد كانت بريطانيا وحلفاؤها تحارب حتى الآن للمحافظة على كيانها وفي المرحلة التالية من الحرب ستحارب لكي تفوز بالنصر الحاسم

النظام الجديد

في أوربا من الوجهة الاقتصادية

عند ما يتحدث أقطاب النازي عن النظام الجديد في أوربا بغية اقناع العالم بمحاسنه ، يشيرون الى « التعاون الحر بين الدول الأوربية في سبيل رخاء جميع الناس » . ولكنهم في الواقع يتأهبون لانشاء نظام ، تخضع فيه القارة الأوربية لألمانيا ، والقاعدة في خطتهم هي تنظيم أوربا على أساس لا يتيح لدولة ما من الدول المغلوبة رفع رأسها ثانية او الثورة عليهم . وقصدهم ان يبسطوا فوق هذه الدول ظلّ « الاكتفاء » بحيث تصبح أوربا مستغنية عن استيراد الخامات من سائر العالم ولاسيما من الولايات المتحدة وأميركا اللاتينية ، وان ينقلوا ملايين من البشر لانشاء صناعات في مواقع لم تكن فيها صناعة ما قبلا ، وان يدسروا الى الأبد الحياة الصناعية في أماكن ما فتئت الصناعة مزدهرة فيها منذ قرون

وقد عكف خبراء النازي منذ نشبت الحرب ، على وضع الخطط المفصلة لهذا النظام . وقد تمّ وضعها الآن ، وجوانب منها طبقت فعلاً

قد يبدو لقراء الصحف ان طرد السكان الفرنسيين من الألزاس واللورين ، انما هو فصل آخر من فصول النزاع الألماني الفرنسي على هاتين الولايتين . ولكن الألمان جروا على مثل هذا في هولندا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا . فقد رحّلوا السكان من مقاطعات كثيرة وأحلّوا الألمان محلّهم . ويقدر عدد الذين رُحلوا بالقوة بنحو تسعة ملايين من السكان ولا يزال عشرة ملايين آخرين من السكان في انتظار مثل هذا المصير

وليس هذا العمل وليد الشعور الوطني المجتاح وحسب . لأن الغرض الرئيسي هو تحويل صناعات الحديد والكيمياء في أوربا الى صناعات ألمانية . ولا يخفى ان الصناعات الأوربية الكبيرة تكاد تكون محصورة في منطقتين ضيقتين ، احداهما على محاذاة الرين ، والثانية على محاذاة سلسلة الجبال التي تفصل ألمانيا عن بوهيميا . وقد كانت نصف مساحة هاتين المنطقتين قبل الحرب الحالية في أوربا داخل الحدود الالمانية . ولكن هتلر ينوي الآن أن يجعلهما منطقتين ألمانيتين من الناحيتين السياسية والعنصرية في آن

وتحويل هاتين المنطقتين الى منطقتين ألمانيتين قلباً وقالباً ، هو إحدى الوسائل التي يتوسل بها الألمان للحيلولة في المستقبل دون ثورة الأمم المغلوبة ، لأن قصد النازي ان ينزعوا سلاح هذه الأمم نزعاً دائماً . وليس هناك من هو أدرى من أقطاب النازي بأن الحروب

الحديثة ، تُحسَّن في المصانع وراء خطوط القتال ، ولذلك لن يسمح لأحد غير الألمان بالاشتغال بالصناعات الأساسية

ولذلك سنحتكر المانيا صناعة الطائرات والدبابات وغيرها من وسائل الحرب الميكانيكية . وقد وصل من الفصائل الألمانية التي احتلت فرنسا طوائف من المهندسين ، أكبوا من ساعتهم على وضع كشوف دقيقة بما تحتوي عليه مصانع الطائرات الفرنسية من آلات ، ثم نقلت توًّا الى المانيا . ومصانع ستروين في باريس ، تنقل الآن الى مترٍ في ولاية اللورين التي ضمتها المانيا اليها ضمًّا نهائيًّا . واذا كان من المتعذر على الالمان ان يحلوا محلَّ سكان منطقة ما ، فالخطة الموضوعة تقضي بتدمير مصانع تلك المنطقة . فالمصانع الكيميائية الفرنسية والهولندية ، مقضيٌّ عليها بالخراب والدمار ، اذا لم تكن هي ومصانع الصلب في منطقة واحدة . وعلى هذا النحو قرر مصير صناعة السيارات في بلجيكا ودور السفانة المشهورة من قديم الزمان في روتردام وانفرس وبرست وصناعة الادوات الكهربية في هولندا . وقد روت الجريدة السويسرية « دي زوريخر تسيتونج » — وهي من الصحف التي يعتمد عليها — ان معظم الآلات في مصانع فيليبس الهولندية المشهورة بصناعة طائفة من الأدوات الكهربية ، قد نقل من هولندا الى المانيا

وستختص المانيا دون غيرها بحسب هذه الخطط ، في صنع الصلب والمحركات والسيارات وفي السيطرة على المصانع الكيميائية ومعامل البحث العلمي الصناعي . وفي ذلك تقول صحيفة « شتارتس كوريه » — وهي لسان حال الحرس الحديدي — « اننا لا نريد ان يبقى أو ما يضاهي الصناعة الفنية والهندسة الميكانيكية ، والبحث الكيميائي ، خارج المانيا »

وتنوي المانيا ان تشد ازر احتكارها لهذه الصناعات بالسيطرة على نظام الاعتمادات المالية في اوربا . ومن بضعة اسابيع أوردت جريدة « نيويورك تيمس » بيانًا رسميًّا بأن الحكومة النازية انشأت شركة محتكرة لجميع اعمال « إعادة التأمين » reinsurance في قارة اوربا . ومع ان هذا النبأ نشر في مكان لا يستوقف الانظار من صفحة ثانوية في الجريدة المذكورة ، الا ان الخبر نفسه يوازي على الاقل خبر غزو المانيا لبلد اوربي آخر . لان انشاء هذا الاحتكار مكن المانيا من الاستيلاء دفعة واحدة على مقدار يتفاوت بين ربع الاموال الاوربية الموفرة وثلثها ، لتستعمل المال في سبيل تحقيق اغراضها السياسية . وهذا العمل يمكن للسيطرة الالمانية على الدولة المغلوبة ، اذ يتعذر على هذه الدول ان ترجع النير الالماني عنها بغير أن تؤدي الوفاً من الناس الذين ثمروا مبالغ يسيرة مما وفروه وكذلك تحوَّل منشأة قديمة مفيدة اداة لتثبيت الاستعباد النازي

ومع هذا لا يعتبر النازي ما تقدم وسائل كافية لتحقيق اغراضهم . انهم لا يعتقدون ان

اوربا تبقى خاضعة لهم ، ما دامت اوربا تعتمد في جانب من موارد طعامها وخامات صناعتها على الاستيراد. وتتركز مولد في قلب أوربا فهو في تفكيره بعيد عن الاهتمام بشؤون البحر. وهو يرى ان المانيا تستطيع ان تنافس الدول الاخرى في القوة البحرية كما فعل القيصر غليوم الثاني . ولذلك يجب ان تنظم القارة الاوربية على اساس يمكنها من إعالة نفسها بنفسها، وتوفير خامات الصناعة اللازمة لها في بلادها ان تستطيع المانيا ان تحميها بجيشها وسلاحها الجوي (وهذا يفسر اندفاعه نحو اوكرانيا) فانشاء اوربا الكتلية المستغنية عن العالم ، هو اكبر مطامح هتلر في اوربا . وهو يفوق اعظم ما طمح اليه نابوليون وطمع فيه

وفي وسع شرق اوربا ان ينتج كل ما تحتاج اليه المانيا تقريباً من الحنطة والنحاس وجانباً كبيراً من الزيت الذي تحتاج اليه المانيا وآلتها الحربية . ومنزلة المنتظرة في النظام النازي ان يغدو في المستقبل المنتج الاول للبضائع الصناعية الرخيصة التي تحتاج اليها جماهير الناس

ففي البلدان التي كانت تعرف باسم بولونيا وسلوفاكيا ورومانيا وهنغاريا ويوجسلافيا وبلغاريا يقطن نحو مائة مليون من الناس وخمسة وثمانون مليون من هؤلاء يشتغلون بالزراعة ولكن الأرض التي في متناولهم لا تكفيهم ، وتربة جانب غير يسير منها لا يصلح للانتاج الوافر . واذن فيجب ان يرحل نصف السكان او ان يفسح لهم مجال لتشغيلهم بالصناعة

ان الفلاح البلقاني ، معوّد العمل ساعات طويلة ، وقد ألف مستوى من العيش ، ليس أعلى كثيراً عن مستوى « الكولي » الصيني . وهي ذكية فهيم ولذلك تنوي المانيا ، على ماجاء في جريدة « امبرناسيونال تسيتونغ » — وهي لسان حال جوبلز — تحويل طوائف من هؤلاء الفلاحين الى انتاج منسوجات وأحذية وأدوات زجاجية وما اشبه لتباع الى السواد الاعظم من سكان أوربا البالغ عددهم ٣٥٠ مليوناً . ولهذا الغرض تنشأ مصانع عظيمة وتجهز بآلات ضخمة تصنع في ألمانيا . ولكن يتعين على العمال ان يعيشوا في حجر كبيرة مشتركة ، وان يعمل العامل منهم اثنتي عشرة ساعة في اليوم او اكثر ، ويحظر عليهم الامتناع عن العمل او تبديله وفقاً لرغبتهم

وقد أنبأ النازي رجال صناعة الخزف والزجاج في الدغارك ، انهُ عندما تضع الحرب أوزارها ، فستنقل مصانعهم الى تشيكوسلوفاكيا ، حيث تركّز صناعة الزجاج والخزف لكل أوربا . وقيل لصنّاع المنسوجات من الدغاركيين كذلك ان مصانعهم ستنقل الى بولونيا حيث تركّز صناعة المنسوجات لأوربا الشرقية كلها . وقد ورد في بيان المانى رسمي ان جانباً كبيراً من آلات صناعة المنسوجات في شمال فرنسا وجنوب بلجيكا نقل الى مصانع جديدة في سلوفاكيا وهنغاريا، وهذا يعني القضاء على صناعة ترتدي نشاطها وتقدمها الى القرن الثاني عشر

كانت هولندا وبلجيكا وفرنسا تتمتع قبل الحرب ، بموازنة لا بأس بها ، بين الانتاج الزراعي والانتاج الصناعي . ولكن النازي يدرون القضاء على هذه الموازنة ، بالقضاء على الصناعات الكبيرة . وبينما يساق الفلاحون الى العمل الصناعي في البلقان يساق الصناع في غرب أوربا الى الارض وحرثها

والباعث الأول على كل هذا هو سياسيٌّ في المقام الاول . وقد أفرغهُ ضابط الماني ، في قوله « بازالة الصناعات من فرنسا نقضي القضاء الأخير ، على كل محاولة فرنسية غرضها الاعتداء علينا » ولكن خطة تحويل هولندا وبلجيكا وفرنسا الى بلدان زراعية ، لها مزايا اقتصادية كذلك . فموطن الضعف الأول في الزراعة الاوربية هو قلة انتاج العلف للمواشي وبلدان غرب اوربا تصلح من ناحية الجغرافية والتربة لانتاج مقادير وافرة من مواد العلف . فعليها اذن ان تنتج اصنافاً خاصة من المحاصيل الزراعية كانت اوربا تشتري معظمها من الولايات المتحدة وأميركا اللاتينية

ويزعم الالمان ان الحاجة تقتضي تحويل جميع سكان هولندا وبلجيكا وفرنسا — وعددهم ستون مليوناً — الى هذا الضرب من الزراعة فلا يفيض فيها عمال للاشتغال بالصناعة . ولا ريب في أن تطبيق هذه الخطة على غرب اوربا يفضي الى خفض مستوى المعيشة . ولكن هذا الاعتبار لا يعيق النازي عن تنفيذها . واذا حُسب حساب ما هو معروف فقط عن موارد منطقة البحر المتوسط كانت كافية لانتاج جميع المطعمات الهامة التي لا توجد في المنطقة الاوربية المعتدلة وليس في الوسع احلال الاعراض Substitutes محلّها الآن

واذا نظرنا الى المسألة من الناحية الاقتصادية البحت وجب ان نسلّم بامكان انشاء قارة اوربية مكتفية . واذا طبقت أساليب الانتاج النطاق الواسع فقد لا يستغرق انشاؤها على هذا القرار زمناً طويلاً ، ولا سيما اذا لم يحسب حساب للضحايا البشرية التي تضحّى في سبيله . وهنا لم يقم يوماً ما وزناً للحياة البشرية

ولكن هل يقنع النازيون بحصر جهدهم في السيطرة على اوربا بما فيها جانبٌ من روسيا ؟ او هل يوجهون سعيهم الى السيطرة العالمية ؟

قد يقيم بعضهم الحجة على ان انشاء النظام المتقدم الذكر في قارة اوربا ينهي تخلي النازي عن الغزو العالمي . وفي الوسع كذلك اقامة الدليل على ان انشاء هذا النظام يمكنهم من اتخاذ قارة اوربا قاعدة للاعتداء على اي منطقة أخرى خارجها . ولكن الخطط التي وضعها النازي تجلو لنا أمراً لا ريب فيه وهو انهُ اذا أحرزوا الظفر فلا الولايات المتحدة ولا اميركا اللاتينية تستطيع أن تتجر بدولار واحد مع القارة الاوربية

كاتب الفصل الذي نقلناهُ في ما تقدم — عن ريدرز ديجست من محة التابشن — عالم اقتصادي اميركي من أصل نمسوي وهو يدعى دروكر Drucker وقد شغل منصب محاضر في الموضوعات الاقتصادية في غير معهد واحد من معاهد الولايات المتحدة ، ولهُ مؤلف اقتصادي نفيس عنوانهُ The End of Economic Man ومقالات محكمة في مجلات اميركية محترمة كمجلة « هارپرز » وما كان على طرازها

ويسرنا ان نوجه انظار قراء المقتطف الذين يعنون بالناحية الاقتصادية من الحرب الى كتاب « النظام الجديد في اوربا » الذي ألفهُ الباحث الاقتصادي والمالي البريطاني « پاول ايلتسج » ونقلهُ الى العربية الأستاذ أحمد عبد الخالق والأستاذ محمد بدران . وهو من خيرة الكتب التي فصّلت فيها قواعد «النظام الهتلري الجديد » في اوربا من النواحي الاقتصادية والمالية . والى القارىء فقرة واحدة من كتاب أيلتسج صفحة ٦٩ وهي تؤيد ما قاله دروكر ، والكتاب كله جدير بالدراسة : —

« وستنظم التجارة الخارجية أيضاً في ظل « النظام الجديد » لخدمة المصالح الالمانية وحدها فستقضي بالتأكيد على تجارة الصادرات للشعوب الخاضعة لسلطان ألمانيا اذا كانت هذه تنافس الصادرات الالمانية . ولقد ذهب الالمان الى أبعد من هذا فخططوا لبعض الصناعات الفرنسية التي تنتج مواد الترف للتصدير ، مع أنها لا تنافس الصناعات الالمانية بحال من الاحوال . ولسنا نستطيع أن نفهم هذا الموقف الذي تقفه المانيا من صناعات البلاد المحتلة الخاصة بالمواد المصدرة على أنهُ من وسائل التنظيم الاقتصادي وحده مهما كان في هذا التنظيم من رعاية لمصالح المانيا دون غيرها . ذلك أن من مصلحة المانيا أن تظل تجارة الصادرات في البلاد الخاضعة لها قائمة تمدها بما هي في أشد الحاجة اليه من العملة الاجنبية لتشتري ما تحتاجهُ من الحاصلات من وراء البحار . ولكن مصلحة المانيا السياسية والحربية تقضي عليها أن تعطل صناعات البلاد المحتلة الى أقصى حد مستطاع ، وأن تستحيل البلاد الخاضعة لسلطانها بلاداً زراعية خالصة . ويستدل من هذا على أن التنظيم الاقتصادي في ظل « نظام أوربا الجديد » لن يكون من ورائه الا الحاق الضرر بالبلاد الخاضعة لسلطان المانيا ، ولن يكون منشأ الضرر مقصوراً على أن المانيا ستراعي فيه مصالحها الاقتصادية وحدها ، بل سيكون من أسبابه أيضاً أن الاعتبارات السياسية والحربية ستسخر كلها لبقاء الشعوب التي تحت حكمها خاضعة لها خضوعاً أبدياً »

باب المراسلة والمناظرة

يهودية اشبنجلر

صديقي الفاضل رئيس تحرير المقتطف الغراء

أحييكم وأقدم اليكم التهنئة القلبية للتعافي ، وبعد قرأت في عدد أغسطس ما كتبهُ الاستاذ علي أدهم في عقيدة اشبنجلر ردًّا على كلمتي في عدد يوليو « توفية للبحث واستجلاء للحقيقة » كما يقول فأرجو منكم فسح المجال لما يلي في العدد المقبل لأنهُ كلمتي الأخيرة فيه ولكم جزيل الشكر

حين سألت الاستاذ عن مرجع حكمهِ بيهودية اشبنجلر لم اقصد به سَوْمَه النقاش فان عندي في الآراء ومخاصة في المسائل العلمية رحابة الصدر ، احترم كل رأي من حيث الرأي سواء كان خطأ أو صوابًا غير أني بنفسي أبذل قصارى جهدي في أن يكون رأيي صوابًا قويًّا ولا يكون هائلاً أو خطأ . فلذلك سألت الاستاذ عن المرجع لأغير رأيي اذا كان دليله أقوى من دليلي ، ولكني من الاسف لم أجده أقوى من دليلي لذلك رفضته ، فبدأ الاستاذ يناقشنا فيه

والنقاش اذا روعيت فيه شروطه وقصد منهُ الحق المحض في الحقيقة مفيد . ومن أهم شروطهِ ضرب كل الموضوع وعدم الخروج عنه . ولكن عادة الاستاذ أن يخرج عن الموضوع بلا ضرورة كما عمل في كلمته السابقة اذ ساق كلامي بغير أي داع الى غير ما قصدته والى ما شاءه هو ، وأنزلني منزلة الجاهل فبدأ يلقي علينا درسًا عن اسبينوزا وعن الزمن الذي عاش فيهِ وهو من البديهات ، كذلك عمل في كلمته الاخيرة ما ستتكلم عنه فيما بعد . وأني على كل حال أشكر الاستاذ واعتذر له الاسف أنني قد صرفت جزءًا هامًّا من حياتي في دراسة العلوم العقلية والفلسفية وتحملت مشقة أيام عدة لغات لأستفيد من المراجع الاصلية دون التراجم لذلك أنا في غنىً عن دروس الاستاذ

وبعد هذا اتوجه الى كلمة الاستاذ الأخيرة . أما في الموضوع فلم يقدم لنا الاستاذ فيها دليلاً جديداً «توفية للبحث واستجلاء للحقيقة » اذ كلها إعادة وتكرار لما سبق واصرار

عليه ، وقد قلت سابقاً أن أقوال الرجل وآرائه واعماله على نفسه عندي أقوى وأوثق من شهادة غيره عليه ولذلك لا وزن عندي لاقوال الناس ودعاويهم في يهودية اشبنجلر ما دامت تصانيفه وآراؤه وأعماله تثبت خلاف ذلك. وهو السبب اني لم أتبسط في أقوال بعض زملائي الاساتذة في الجامعة إذ ذكرته كدليل ثانوي

أما قول الاستاذ : « كأنه يريد من اشبنجلر ... الخ » فلم أقله وأنا لم أستشهد بكلامي ذلك بل قصدت به ما قاله الشاعر العربي

وفي الأرض منأى للكريم عن الاذى وفيها لمن خاف القلى متعزل

فان العالم ليس عبارة عن بلاد المانيا فقط ومتتبعو الحوادث في العالم يعرفون وافرض ان الاستاذ أيضاً يعرفه انه حين بدأ اضطهاد اليهود في المانيا احتج كبار علماء المانيا من اليهود وغير اليهود من اصحاب المبادىء الحرة عليه ، فلما لم يجد احتجاجهم نفعاً اختاروا الهجرة ، فالعلامة اليهودي اينشتين هجر والشاعر الاديب الشهير توماس مان وأخوه الكاتب هاينرش مان والكاتب البارع اميل لودوج والعالم الكيميائي هابر وغيرهم كثيرون هجروا فكان ممكناً لاشبنجلر ايضاً ان يحذو حذوهم على الأقل ولكنه لم يعمل بل شد ازر النازية بمصنفاته وأفكاره وهو أكبر دليل على انه لم يكن يهودياً

أما قول « الاستاذ انه آثر العافية والسلامة وسار في ركاب الاقوياء » فهو دعوى بغير دليل ولا ثبوت

أما في الامور الخارجة عن الموضوع فأتعب الاستاذ نفسه بذكر المراجع العديدة وترجمة بعضها في اثبات اثر اسبينوزا في جوته وهو تحصيل الحاصل فاني لم أنكره ولا طلبته منه كما لا اجهله اذ جميع تلك المراجع عندي ، بل أعلم من مصنفات جوته نفسه اعترافه باثر اسبينوزا وانتقاده له ، واما ما ذكرت في مقالي السابق من افكار بعض المفكرين له فهو ما قرأت منذ سنين في مباحث علمية تحليلية جليلة القدر عظيمة المنزلة لبعض كبار المفكرين في بعض المجلات الالمانية

عيّرني الاستاذ بأني لم اكن اكثر دقة حين قلت في مقالي « ان فلسفة اسبينوزا تمتد الى مدى كبير صدى الفلسفة العربية » وانا ارى ان الاستاذ نفسه حسب المثل العربي « رمتني بدائها فانسلت » لم يكن اكثر دقة في فهم كلامي ، فادعى بازدراء المفكرين العظام والعلماء الأفاضل ولم انوه به امتهان اسبينوزا ولكل امرىء ما نوى ، وقد قيدت « صدى » بقيد « الى مدى كبير » ولم اقل ان فلسفته كلها كانت « صدى » او « ظلاً » كما قال الاستاذ. وما نقلته عن كتاب الاستاذ الدتاركي فاروالد هوفدنج ايضاً يثبت ما قلته إذ هو يعترف

باستفادته من ابن رشد وابن ميمون . وقد ذكرت في مقالي السابق الراجح التي يرى أصحابها الفضلاء ايضاً هذا الرأي . وعليه فأرجو ان لا يؤاخذني الاستاذ لو صارحته ان رأي هؤلاء العلماء هو عندي أصوب من رأيه

يقول الاستاذ على ذكر حقيقةً تاريخيةً ملموسةً شهدها العالم منذ ربع قرن تقريباً وكانت أساس دعاية الجانبين ولا تزال ان لحجتي «الدون كيشوتية» مع ان كلة الاستاذ بنفسه حسب المثل رمتني بدائها فانسلت ليست بخالية من تلك اللهجة فقوله «فراعون العصر الحاضر» وقوله «وهو محسوب على الثقافة الالمانية» اكبر دليل عليها . أوليس الاجدر إذن ان يعيد الاستاذ نظره في الكتاب الذي يرى ان أهديه أنا ، ثم يتولى هو بنفسه تقديمه الى من يشاء من الأحياء والموتى ، لان الطبيب أولى بمباشرة علاج مرضاه من غيره ، ولان علم الاستاذ يقدر باعجازه ان يصلح بذلك الكتاب الأحياء والموتى على السواء فينال به زعامة الأحياء في هذا العالم والموتى في يوم الحشر

وفي الختام استسمح الاستاذ لاوضح مسلكي في مثل هذه الأمور لكي لا يتعب نفسه في ذم فريق ومدح فريق آخر . أنا يا سيدي الاستاذ قد ولدت في بلاد شرقية لا تعد نفسها جزءاً من أوربا وتشعر شعوراً مستقلاً قوياً يمجدها الماضي الشرقي وتسعى بكل ما لديها الى إحيائه على ضوء الافكار الحديثة بغير جمود ولا جحود وقد تثقفت بثقافة علمتني من الصغر « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » و « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها » وعليه فالحكمة او الحق هو ضالتي أينما كان لذلك اذا طعن الاستاذ في فريق دون فريق فأنا لا أتأثر منه لان المسائل العلمية عندي قداسة فوق ذلك . وأعلن ان هذه كلتي الأخيرة في الموضوع ، وفي يوم يقدر الاستاذ ان يثبت لي بآراء اشبنجلر وأقواله وأعماله ، او بمصدر نازي لان النازية ضد اليهود والاشياء تعرف باضدادها او بدليل آخر أقوى من ذلك انهُ يهودي ، سأعلن مشايعتي لرأي الاستاذ مسروراً ممتناً . وأما الدلائل التي دونها في القوة والوثوق او الكلام الخارج عن الموضوع فلا يستحق عندي ان أرفع له رأسي والسلام ؟

***

حاشية : استعمل الاستاذ في كلته «افتراض» بمعنى فرض وما نعرفه هو أن افتراض يستعمل بالعربية لمعان خاصة غير معنى فرض فاذا كان الاستاذ استند فيه على كلام أحد شعراء الدهماء أو أئمة اللغة فنرجو نشره في المقتطف وله الشكر

السيد ابو النصر احمد الحسيني الهندي

باب الأخبار العلمية

العلم والحرب وما بعد الحرب

ضرورة التعاون بين العلماء والساسة

مجمع تقدم العلوم البريطاني ، من الهيئات العلمية الكبيرة التي تعوّد قراءة المقتطف مطالعة اخبارها وقراءة محاضرات رجالها، وقد نشرنا من سنوات كتاباً كبيراً يحتوي على عدد وافر من خطب الرآسة فيها . هذا المجمع لم يعقد اجتماعه السنوي في السنة الماضية ، لأن شهر سبتمبر ، وهو الشهر الذي يعقد فيه الاجتماع السنوي عادة ، كان شهر موت او حياة في بريطانيا ، اذ فيه بلغت معركة بريطانيا أوجها من الشدّة والعنف الى ان رُدّت كتائب الالمان الجوية ، وغدت تهاجم الاغارة على بريطانيا في النهار ، ما عدا طائرات قليلة تأتيها فُرادى

ولكن المجمع عقد اجتماعه السنوي، في شهر سبتمبر الماضي (١٩٤١) وحضره فريق كبير من أكبر علماء العالم ، بل ان ثلاثة علماء على الاقل طاروا من الولايات المتحدة الى لندن ليحضروا جلساته ويلقوا فيها محاضرات نفيسة

ولم يقتصر اجتماع هذه السنة على العلماء البريطانيين بل شمل جماعة من أكبر رجال السياسة ، نذكر بينهم الرئيس بنش والمستر ايدن والمستر وينانت السفير الاميركي والمسيو مايسكي السفير السوفياتي والدكتور ولنغتن كو السفير الصيني ، كما شمل فريقاً كبيراً من علماء الحلفاء في مقدمتهم علماء فرنسا الحرّة ، وعلماء المانيا المضطهدة ، وعلماء الصين المكافحة وغيرهم

كان الموضوع العام الذي عالجه اعضاء المؤتمر « العلم والانشاء بعد الحرب » . وكان رئيسة السر وتشرد غريغوري رئيس تحرير مجلة نايتشر سابقاً . وكان المؤتمر نفسه تحت إشراف قسم جديد في المجمع اسمهُ قسم « العلم وعلاقاته الدولية والاجتماعية »

حرية علمائنا سلاح

بدأ الاجتماع يوم ٢٥ سبتمبر في دار المعهد البريطاني British Institute بلندن فتلا فيه الرئيس رسالة من المستر ثشرتشل هذه ترجمتها ... « ازاة الظلام العقلي الذي أخذ يرخي سدولهُ على المانيا ، تعتبر حرية علمائنا سلاحاً قويًّا في أيدينا ، لأن التفوق في الارتقاء العلمي عامل حيوي في التأهب للنصر

« ولا بدّ ان يستغرق جهد الامم المتحضرة زمناً طويلاً قبل ان يرمموا ما يحطمهُ الالمان

وراءهم من الخراب المادي والأدبي. ولا بدَّ ان يستأثر هذا الجهد بجميع موارد العلم. ولكنني أنظر بعين الرجاء الى اليوم الذي يستطيع فيه علماء كل أمة وقف نشاطهم على عمل الانشاء المشترك »

السياسة خادمة العلم

وخطب السر إيدن فقال « اننا ندعوكم لمساعدتنا في سبيل القضية التي نكافح من أجلها، وستزداد حاجتنا اليكم في عمل الانشاء بعد الحرب. عندئذٍ سنواجه كفاحاً آخر، لا يقلُّ مشقة واستئثاراً بالهمة وطلباً للتضحية من كفاحنا الحالي — وهو كفاح ضد الجوع، والعبودية، والألم، ألم الجسم وألم الروح »

ثم قال: ان ما نبذله ونبذلونه الآن من النشاط وقف على القضاء على نظام هتلر الضرج بالدماء الملفوف بالأوجاع. إن المانيا فرضت بنفسها على نفسها حصراً عقليًّا، فهي مطرقة من الناحية الفكرية. وهي التي تخلت بنفسها عما يشيع في روح العلم من مبدإ الاشتراك العام والتعاون الدولي، إنها أبعدت خيرة علمائها، إما بطردهم بالقوة وإما بانشاء حالة من العيش لا يطيقها روح العالم الحر

«وأبغض ما في النظام الهتلري، هو فكرة «الشعب السيد» والشعوب المسودة الخاضعة له. فالعلماء الالمان الذين لم يطردوا او لم ينفروا من المانيا، أصبحوا عبداً لنظام يناقض كل ما يمثله روح العلم الصحيح»

ثم تحول السر إيدن الى موضوع العلم والاجتماع فقال: انما أسداه العلم الى الحضارة سهل أسباب العيش على كثيرين من الناس ولكنهُ أفضى الى غير قليل من التفاوت والاثرة والتوزيع الجائر والنزعة المادية. قال:

فاذا أردنا بعد الحرب، ان تتاح لنا فرصة طيبة لمكافحة هذه المساوي، فعلى العلم والسياسة ان يعملا معاً. عليكم ان تساعدونا وترشدونا، واذا كان في قدرتنا ان نسدي خدمة ما فسنديها مغتبطين. ان السياسة في اثناء الحرب خادمة الخطة الحربية الستراتيجي) وأملي أن تغدو في أثناء السلام خادمة العلم. ويتعين على السياسة أن تضمن حينئذٍ ان ثمار العلم لا تضيع جزافاً ولا يساء استعمالها في حياة الشعوب

القضاء على الجوع والمرض

وخطب السر وَيْنانت سفير الولايات المتحدة في لندن فقال «ان الخدمة الأولى التي في وسع العلم اسداؤها الى البشر الآن، هي توحيد الاسلوب العلمي والعلم العملي في تأييد قوات الحلفاء المسلحة، فهي تنشأ الآن وتدرَّب وتسلح لكي تقضي على سطوة النازي. إن أصحاب هذه السطوة حاولوا بقوة لا ترحم وقساوة لا تلين اهانة الكرامة الفردية والقضاء على حقوق الانسان». ثم قال: — « ان النازية قد سرقت المخترعات العظيمة التي ابتدعتها العقول الحرة المبدعة

وانطلقت بها هاتفة منهوّرة تستعملها في استعباد الروح البشري لا في تحريره». ثم قال: على العلماء ان يعدوا نظرهم الى ما بعد الحرب، اذ لا بدّ ان يكون العالم جريحاً كسيحاً تشتد فيه الفاقة، وتعظم الحاجة، فهناك المجال لأيدي العلم الآسية وقدرة العلم على الانشاء المنطوية في الفنون الميكانيكية والصناعية

***

« واذا نحن نحاول ونسعى جهدنا الى تأييد حقوق الانسان السياسية، وهي الحقوق التي لا غنى عنها ركناً للتقدم العلمي وشرطاً للعقل الحرّ، فعلينا ألاّ ننسى ان على العلم تبعة عظيمة في ان يبذل غاية ما في وسعه لاكتفاء حاجات الانسان الاولية، أي علينا ان نعترف بأن ضرورات الحياة هي جزء من حقوق الانسان. علينا ان نقضي على الجوع وعلى السيف وسيلة لتسخير الناس. وبهذه الوسيلة دون غيرها نستطيع ان ننفخ معنى وحياة في ذلك الحق الانساني « حق الحياة والحرية وانشداق السعادة »

طرف من اقوال المحاضرين

كان نطاق الموضوعات التي عالجها العلماء في محاضراتهم واسعاً جدًّا ولكنها كانت تدور جميعها حول مسألة عامة وهي ما نصيب العلم في انشاء العالم الجديد، بعد ان يساهم العلم في قهر الطغيان النازي. وقد أجمع المؤتمرون على ان مساهمة العلم في قهر الطغيان النازي أمرٌ لا مفرّ منه، مع تقلّص في طباع العلماء، لأنه اذا قهر النازي واتباعهم في الحرب، قضي على الأسلوب العلمي في البحث وأساسه حرية الفكر والبحث

أما مقام العلم في الانشاء بعد الحرب، فقد عالجهُ كلٌّ من ناحية اختصاصه

فألقى الاستاذ لوثر جوليك — وهو أحد أساتذة جامعة كولومبيا وقد طار من أميركا الى لندن ليشهد هذا المؤتمر — محاضرة عما أنشأتهُ حكومة الولايات المتحدة بوادي نهر التنيسي من مصانع كبيرة لتوليد الطاقة الكهربية ومصانع للسماد وغيره، وساق هذا دليلاً على ما يستطيعهُ العلم متعاوناً مع الحكومة في اصلاح قطرٍ كاملٍ وشقّ طريق الرخاء أمامهُ. فالمنطقة التي تشملها هذه المشروعات الاميركية العظيمة تبلغ مساحتها مساحة بريطانيا ولكن سكانها لا يزيدون على مليونين ودخلهم يسيرٌ وكثيرٌ من أرباب العائلات فيها لا يزيد دخلهم السنوي على ٥٠ جنيهاً في السنة أما الآن فقد أخذ الرخاء يعم المنطقة؛ وما أنشئ فيها من مشآت صناعية يدني خدمات جليلة الى النشاط الحربي.

وألقى المستر هربرت موريسون وزير الداخلية البريطانية محاضرة عالج فيها ما يستطيع العلم ان يديه الى الناس في مسائل المأكل والمسكن والملبس بحيث لا ينزل أدنى ما يصيبه الفرد منهم عن مستوى معين يحدّده العلم.

وقال ان تعيين هذه الحدود يجب ان يكون عاملاً سياسيًّا واجتماعيًّا من الطبقة الاولى. وقد صفق له المؤتمرون طويلاً عندما ختم خطبته بقوله «لا بدَّ للسياسي المطبق بأذنه على الارض لتبين الاتجاهات السياسية ان يخلي مكانهُ في ما بعد الحرب للسياسي الذي تحدق عيناه في المستقبل»

وخطب الفسيولوجي الكبير الاستاذ هل نائب جامعة كمبردج في مجلس النواب فبحث في موضوع مكانة العلم في الحكومة، ووجوب تعيين مستشارين علميين في الوزارات المختلفة على ان لا يقيَّدوا في بحث المشكلات التي تعرض عليهم بقيود الادارة الحكومية، لكي يكون بحثهم والنتائج التي يخلصون اليها قائمة على أساس علمي صحيح. وضرب مثلاً على ذلك بمستشارين علميين في وزارة القوين كان لآرائهم في شتى المسائل فائدة كبيرة. وختم بقوله ان البحث العلمي يجب ان يوضع له نظام ولكن يغير ان يجور ذلك النظام على روح البحث الحرّ

وخطب الدكتور تجرين رئيس الوزارة الاسبانية في عهد الحرب الاهلية فبين قيمة التدريب العلمي في حياة السياسي لانهُ يمكنهُ من البحث بحثًا دقيقًا والحكم حكمًا صادقًا في المسائل المعروضة عليه. وكان بليغًا البلاغة كلها في مناشدته جميع الأمم ضمَّ الجهد للقضاء على «الحكم الكلي الوحشي الذي قام في اوربا»

ووصف الاستاذ برنال التقدم في بعض نواحي العلم ولاسيما في علم الاجتماع. وهذا يمكن العلماء ورجال الحكم من الاجابة عن مسائل كثيرة معقدة في الشؤون الفنية على أهون سبيل وفي أحصر طريق. وعنده ان هذه الناحية من التقدم يجب ان تختصر مدَّة تطبيق الاساليب الفنية الجديدة في الصناعة وملاءمة الاحوال الاجتماعية لها. وهذا في رأيه يحقق في اثناء الحرب مثرًا يضغط الحاجة فيجب ان يكون مستطاعًا في ايام السلام بوحي العقل

ووقف العالم الزراعي المشهور السر جون رسل خطبته على موضوع اصلاح الاراضي الزراعية بروسية التي اقتضت الحرب تدميرها واقترح ان تنقل البذور المؤصلة التي استصفاها علماء الزراعة في روسيا؛ الى انكلترا حيث تحفظ في مكان أمين لتعاد الى روسيا بعد الحرب، لأنها اذا وصلت اليها يد التدمير، فقد يتعذر عود الزراعة الروسية الى حالتها السوية قبل عشرات من السنين. وذهب الى ان تدمير أشجار الفاكهة في أوكرانيا من أبعث بواعث الأسى واقترح ان تجمع البراعم وتنقل بالطائرات الى حيث يتعهدها الخبراء بالعناية والرعاية ثم تعاد لغرس بساتين الفاكهة في اوكرانيا بعد الحرب

وخطب لورد صمويل وهو ذو منزلة عالية في دوائر الفلسفة علاوة على مكانته السياسية فبين منزلة العلم في تأييد قضية الحلفاء واقترح تعيين ملحقين علميين اسوة بتعيين

ملحقين حربيين وتجاريين بالسفارات والقنصليات فيكون لهم تتبع مجالي الارتقاء العلمي في البلدان التي يوفدون اليها

وتلاه السر جون اور Orr العالم المشهور في موضوع الغذاء فقال ان اوربا ستواجه بعد الحرب أعظم كارثة نزلت بها فعلى الحلفاء ان يعينوا من الآن لجنة دولية لبحث موضوع الطعام ووضع خطة ينفذها الحلفاء عند ما يكتب لهم النصر لاتقاء غائلة المجاعة والامراض. وأيده في ذلك المستر نويل بايكر عضو مجلس النواب البريطاني، والاستاذ بوليوس لوي

وخطب المستر وار ملخصاً رسالة طويلة كتبها للمؤتمر في مستقبل الانسان على سطح الأرض واحتمال انحطاطه وانقراضه اذا لم يحكم عقله ويطبق ما يقضي به العقل من ملاءمة نفسه للتحول العمراني . وبعد ما عالج مهمة رجال الفكر في إعداد العالم للمستقبل اقترح السيطرة على وسائل النقل الجوي ، وحفظ موارد الارض من البعثرة والتبذير ، واتخاذ لغة مشتركة للتفاهم السياسي والعلمي والفلسفي والديني ، وتأليف دائرة معارف عالمية . وهذه المقترحات ليست جديدة في أقوال وار فقد عالجها في غير كتاب واحد من كتبه بل في جميع الكتب التي ألفها في العشرين السنة الاخيرة

دستور العلم والعلماء

وقد قرأ الرئيس السر رتشرد غريفوري على العلماء ورجال السياسة الذين حضروا الجلسة الختامية وثيقة وصفت بأنها « دستور العلم والعلماء » وهي تحتوي على سبع مواد اليك ترجمتها :—

١ — حرية التعلم ، وفرصة التعليم ، والقدرة على الفهم ، لا غنى عنها في توسيع نطاق المعرفة ، ونحن العلماء نقول ان التضحية بها تفضي الى إهدار كرامة الحياة البشرية

٢ — الجماعات تعتمد في بقائها وتقدمها على معرفتها أنفسها وخواص الاشياء في العالم الذي يحيط بها

٣ — جميع الامم وجميع الطبقات أسدت أيادي الى المعرفة وطرق استعمال الموارد الطبيعية والى فهم تأثيرها في الارتقاء البشري

٤ — المبادىء الأساسية في العلم تعتمد على الاستقلال مقترناً بالتعاون وتتأثر بحاجات الانسانية السائرة الى الامام

٥ — ان رجال العلم هم أمناء كلّ جيل على ما يرثهُ من المعارف الطبيعية . فيتعين عليهم ان يرعوا هذا الارث وان يضيفوا اليه ، بالوصاية الأمينة وخدمة المثل العالية

٦ — جميع طوائف المشتغلين بالعلم اخوان في جامعة العلم العامة . وهذه الجامعة نطاقها الأرض قاطبة وكشف الحقيقة غرضُها الأسمى

٧ — إن المضي في البحث العلمي يقتضي حرية عقلية وتبادلاً دولياً لا قيد لهما ، ولا يترعرع الا في حضن الحياة المتمدنة الحرة

انوفي يسترد قدرته الى الاحياء
لعوض جندي عن الاستاذ هولدين

مفروض على كل امرىء في الاتحاد السوفياتي أن ينفع أبناء وطنه في أيام حياته وقد يطّرد أحياناً هذا النفع الى بعد مماته ولادراك وسائل ذلك النفع لا بدَّ لنا من فهم شيء بشأن كنه الموت

كان المذهب القديم في الموت ، انهُ مفارقة الروح للجسد . فاذا ماطلّقت النفس جسدها ، مات في هنيهة ولو شاهدت امرءًا وهو يلفظ روحه لرأيت نفسَهُ ينقطع في لحظة معينة . وهذا سبب من الاسباب التي تجعل الحياة وثيقة الارتباط دائمًا بالتنفس . ولاغرو فكلتا حيوان وروح ، مشتقتان في اللغة اللاتينية من لفظين يدلاّن على التنفس . ومتى فاضت روح الانسان ، كفَّ نخهُ توًّا عن اداء وظيفته فيموت بوصفه كائنًا حيًّا . ولكن بعض اعضائه الاخرى يظل حيًّا . اما اذا قضى المريض بعلل غير قلبية ، بقي قلبه ينبض ما دام دافئًا ، مزوداً بالدم . وقد يلبث بعض خلايا بدنه حيًّا عدة ساعات

وما من شك أن خلايا فروج أمكن حفظها حية زهاء ثلاثين سنة وذلك بوضعها في مزيج صالح لتغذيتها مؤلف من الدم والمصادر الغذائية الاخرى

«المترجم : يقصد الكاتب ظلة ابن الفروج في تجربة الدكتور الكسيس كارل . واليك ما قاله فيها فرنانس في كتابه الثالثة سنة القادمة»

ينبغي أن يظل يوم ١٧ يناير سنة ١٩١٢ يوماً مشهوداً في عالم الاحياء إذ قام فيه الدكتور الكسيس كارل الطبيب المشهور في معهد روكفلر لمباحث الطبية بأكبر قطعة من قلب فروج لاجل الاعتاب . وكانت تلك الفلذة حية حينما نزعها من موضعها وتولى الاشراف عليها . وما زالت حية الى الآن وسوف تبقى كذلك لتصير تاريخية خالدة . وهي الآن في سنة ١٩٣٦ سليمة قوية البنية مثلما حين وضعت في ذلك المحل . ولكن يعد جداً ان يستطيع أي مجرب عادي القيام بتجربة عالية كهذه في ذلك الفراريج . لان الدكتور الكسيس كارل يراعي تلك الفلذة مراعاة فائقة كأنها أميرة . فالاميرات يقدم اليها كل ما تحتاج اليه من لوازم بحيث تبقى البيئة التي تعيش فيها تحت رقابة يقظة ، كما لو كانت كامنة في صدر فروجها ، إذ يوصل اليها الهواء الصالح والغذاء النافع من البروتينات التي تتغذى بها الاجنة ، وترطب بمحلول ملحي مركز التركيز الملائم لنموها ، وهذا الى جانب تنظيفها جيداً من الفضلات التي تنبثق فيها ، من استحالة الغذاء . وبما أنها حية فهي دائمة النمو ، ولذلك تكتظ الانسجة الزائدة من حولها التي ذات حجم معين لا تتعداه . وكل خلية من خلايا الجسم البشري تأتي هذه العمليات جميعها . والمقصود من التركيب العضوي الميراثي انما هو تعاون طائفة كبيرة من الخلايا بعضها مع بعض ، بحيث يعنى كل منها بالوسط الذي تعيش فيه أخته ، فتتمكن الخلايا جميعها من الحياة . ومدار حياتها ، قيام كل منها بتنظيف الاخرى . إذ الخلايا الفردية لا تستطيع الخلود ، بيد ان فلذة قلب ذلك الفروج التي ربيت مشكلة على الخلود ما دام سائر الدكتور كارل في معهد روكفلر داعيه الرقابة على الجهاز المنظم الحرارة التي تحتاج اليها آناء الليل وأطراف النهار . ثم ما أردنا اقتباسه من من ذلك المصنف النفيس ، إيضاحاً للموضوع

وتظل هاتيك الخلايا تنقسم بذاتها . ولكن لما يفلح امرؤ في خلق فروج جديد منها ، أسوة بالزارع الذي يتناول فسيلة من النباتات او فلذة من الحيوانات البسيطة جداً ليتم تركيب ذلك النبات والحيوان . فلو كان الانسان آلة من الآلات المعروفة لاستطعنا ان نستبدل أية اداة تبلى من أدواته بأخرى من غيره ولكن دون ذلك خرط القتاد . وهذا ينطبق على الحيوان الطباقه على الانسان . فاننا اذا زعنا رجل أرنب وغرزناها في جذع أرنب آخر ماتت في الغالب. وهذا عينه مايحدث بلاشك للانسان

ومن وجهة أخرى يتاح نقل الدم من انسان الى آخر بشرط ان يتم النقل من الطائفة الصالحة . وقد تصلح لتلك الغاية دماء الحديثي الولادة على ان يكون موتهم غير ناتج عن مرض معد. ومع ذلك ففي وسع الاصحاء منح الضعفاء دماءهم دون أن يحيق بهم مكروه بناء عليه غدت عملية التصفيق عامة مقتصرة على الاحياء

وللعمى عدة أسباب أكثرها شيوعاً تعتيم قرنية العين وهي النافذة الشفافة لمقدم العين . وكان الطبيبان زيرم Zirm الالماني وإلشينج Elshing البراجي (نسبة الى مدينة براج عاصمة تشيكوسلوفاكيا) في مقدمة من عالجوا ذلك الضرب من العمى بغرز قطعة من قرنية العين سليمة بدل قرنية مريضة ثم قام الدكتور توماس من أطباء كارديف في انكلترا بتحسين الطريقة المشار اليها

وفي آخر أوديسا الروسي ، طبيب جراح وهو الدكتور فيلاتوف Dr. Filatoff قام بعدة عمليات ترقيع خاصة بقربات شفافة نزعها من عيون عميان كان علاجهم ميؤوساً منه . وهذا ينطوي على فقء العين من صخر رجل حي او امرأة حية يكون أعمى أو تكون عمياء من علة غير تعتيم القرنية . وكذلك جرب استعمال عيون للموتى وذلك بأن يثلج العين المقلوعة ، فوق درجة التجميد تماماً ، يوماً كاملاً أو أكثر من يوم ثم يقطع منها بآلة خاصة جزءاً مستديراً يبلغ قطره نحو خمسة قيراط ثم يثقب في قرنية الاعمى ثقباً مماثلاً لذلك الجزء المقلوع فيغرزه فيه . فدهش ذلك الطبيب المشهور من نجاح عمليته هذه (١)

فاستعمل رقعاً من قربات الاحياء (٢) فنجحت بنسبة ١٦ الى ٧٥ ثم جرب الرقع المنقولة من عيون الموتى فأعاد بها البصر الى ٨٧ من ١٣٥ أعمى

وقدر الدكتور فيلاتوف عدد العميان في العالم قاطبة بستة ملايين . وعدد المصابين بالعمى الجزئي بخمسة عشر مليوناً وهو يظن أن زهاء مليونين منهم يتاح علاجهم بهذه العملية علاجاً ناجعاً ، إذ

(١) عرض هذا للقال على صديقي الدكتور احمد عبد الرحيم قبي نظامي العيون وكبير أطباء الرمد ل المجموعة الصحية بيولاق في القاهرة فاعجب به

(٢) راجع «العمي يبصرون» في مقتطف فبراير سنة ١٩٣٩

يمكن حتى أوائل السنة الحالية من شفاء نحو ثلاثمائة أعمى ، بيد أنه يؤسفهُ أن نشوب الحرب الحالية أو التحيز الاجتماعي يحولان دون اتصال أطباء العيون السوفياتيين بزملائهم من أطباء الرمد في سائر انحاء العالم فيبقى أولئك المكفوفون على حالهم حتى تضع الحرب أوزارها

وذلك لأن جراحة العين من الفنون التي تتطلب مهارة فائقة وكل دقيقة من دقائقها لها قيمتها . ويستعين الدكتور فيلاتوف على اتمام العملية المشار اليها بمادة مطهرة هي الليسوسيم lysosyme فتوضع فيها العيون ريثما تباشر عملية الترقيع . والليسوسيم مادة طبيعية واقية من التعفن اكتشفها فلمنج Fleming أحد أطباء بريطانيا العظمى وذلك في دموع البشر وفي غيرها من افرازات الطبيعة الحية . ومع ذلك لم تستعمل في البلاد التي اكتشفتها بل اقتصر استعمالها على جمهورية السوفيات حيث يتوسلون بها الى وقاية البطارخ caviare من الفساد

وقد عني الدكتور فيلاتوف بالوقوف على سبب نجاح الانسجة التي تؤخذ من عيون الموتى الحديثين اكثر منها عند نقلها من عيون الاصحاء فتبين ان التفاعلات الكيميائية التي تحدث في انسجة الجسم البشري بعيد الوفاة وان يكن الجسم قد صين من العفونة هي التفاعلات نفسها التي تلين اللحم عند تعليقه في الهواء . وقد قام الطبيبان سارسكي Sharsky وفوروبيف Vorobiev بحقن جثة لنين بالمواد الكيميائية صوناً لها من التعفن فنجحا في تلك المهمة اذ أتيح لهما وقف التغيرات المشار اليها

وأبلغ الدكتور سارسكي الاستاذ هولدين أن أرملة أميركية من وريات اللايين طلبت اليه وقاية رفات زوجها من التعفن وعرضت عليه مبلغاً كبيراً من المال فأبى لاعتقاده ان أرباب اللايين لا تسوغ معاملتهم أسرة بلشيفية . ويلوح لنا ان المادة التي تتولد في الدور الاول من عملية التلين قبل ان تموت الخلايا موتاً حقيقياً هي التي تثبت الرقعة في مكانها وهي التي تساعد الانسجة المحيطة بها على عودتها الى حالتها الطبيعية

وقد شرع فيلاتوف في نقل قطع كبيرة من جلود الموتى الى اجساد الاحياء ففاز بنتائج باهرة . ومما يذكر في هذا الصدد أن روسياً من المشتغلين باستخراج المعادن من مناجمها وبصناعتها احترقت يداه ثم عولجتا فشفيتا ولكن بقيت في يده اليمنى آثار زرق كثيفة حالت دون حنيها فعولج بعض تلك الندبات برقع طبيعية من جلد ميت فصارت الباقية ألين مما كانت عليه . ومن ثمة أتيحت اعادة استخدام اليد . وفي الآونة الحالية يجرب فوج من تلاميذ فيلاتوف ترقيع اجسام الاصحاء من جميع الانواع ويأخذون رقعاً من أبدان الموتى الحديثة . ويصح القول انهم متفائلون جداً اذ نظروا ببعض نتائج تبعث على الدهشة

مكتبة المقتطف

١ — الصعلوك ، أبو شوشه ، الموكب

ثلاث مسرحيات من فصل واحد بقلم الاستاذ محمود تيمور بك نشرتها مجلة « الحوادث » في ١٢٦ صفحة من القطع الوسط — مطبعة عطايا بمصر

في عدد يونيو سنة ١٩٤١ من هذه المجلة بسطت القول في فن تيمور في آثاره القصصية فأوضحت أطوار فنه وسمات كل طور . وقلت في ختام ما كتبت ان فن تيمور دائم الحياة مستمر النبض ، ينقل عن الحياة فيحسن النقل ، ويأخذ من الخيال فيحسن الاخذ والتصوير كما قلت ان الوصف عنده من أدق مظاهر فنه ومن أوضحها ظهوراً ومن أغزرها فيضاً بالحياة

واليوم أتناول اتجاهاً جديداً لفن تيمور ، إذ أخرج لقرائه ثلاث مسرحيات هن أول مجموعة لاتفاته نحو المسرح . فلقد بذل جهوداً قوية في تدعيم فن القصة حتى أقام بنيانه موطد الاساس ، واتجه منذ حين الى أدب المغامرات فأخرج قصة « نداء المجهول » . وها هوذا يلتفت نحو المسرح يغذيه ويقويه كما كان يعمل أخوه المرحوم محمد تيمور بك من قبل

وشأن محمود تيمور بك في مسرحياته شأنه في قصصه ، فهو دقيق الملاحظة لا تفوته بسيطة من بسائط الجو المحيط بالصورة التي يرسمها . وهو يضع لكل شخصية ما يميزها من خلق او عمل فلا يتجاوز معها حدها الطبيعي ولا جوهرها الاصلي فتبدو الصورة طبيعية . فهي إن كانت ساذجة ظلت على حالتها من السذاجة ، وان كانت على شيء من الحيلة ظلت ظاهرة المعالم بدون مبالغة

وقد وضع الاستاذ تيمور مسرحياته باللغة العامية الدارجة بل كتبها بحروفها كما تُنطق في اللغة الدارجة فلم يضع حرف القاف في مكان الهمزة في كلمة « قلت » مثلاً بل كتبها هكذا « ألت » . وحجته في تناول الحوار باللغة العامية الدارجة هو ان المسرحية ينبغي في كل تفاصيلها ان تكون صورة صادقة للحياة التي تصورها

وقد نختلف مع المؤلف في هذا الشأن فاننا نرى ان يكون أسلوب الحوار فيما بين

الشخصيات المثقفة تقرب الى لغة الكتابة الرفيعة . أما ما تنطق به الشخصيات الساذجة فلا بأس من وضعه على حالته ولنا فيما وضعهُ تيمور بك في قصصه حجة لنا . لأن الأدب يجني من وراء هذا أغلى الثمرات . ولو وضع كبار الكتاب هذه الخطة للناشئة من الأدباء لاستمعنى بعد ذلك تطوّر الفن المسرحي في اسلوبه وإن كان المعوّل فيه على القدرة على اجادة التصوير والأداء ، وهذا أول ما يتجلى في مسرحيات تيمور كما يتجلى فيها الروح الفكه الوثّاب الذي يسري في كل حواره ، وهو يعيد الى الأذهان الروح الجميل الذي كان يغمر المسرح من فنّ المرحوم أخيه

وقد رسم لنا في المسرحية الأولى منها شخصية المرأة المترفة التي يبث ترفها بكل ما كانت تقدره المرأة في الرجل فأصبحت لا تجري الاّ وراء ماله لتشبع رغبات مظاهرها . ورسم لنا في مسرحيته الثانية صورة الرجل الذي تحت حياة الريف في نفسه كل مظاهر المدنية وعملتهُ عن عواطفه . أما الثالثة فهي صورة ساخرة من لونين من ألوان الحياة الاجتماعية بين آثار الماضي وزخرف الحاضر . وفي جميع هذه المشاهد تلعب ريشة تيمور بسحرها فتخرج الصورة في أجل إطار

وإنا لنرجو ان يمتد نشاط الاستاذ تيمور في تغذية المسرح فهو حريص على ان يؤدي رسالته كما يقتضيه فنه فلم يترك ناحية يستطيع فيها ان يرفه عن الانسانية بفنه إلاّ اتجه اليها . ولقد أخرجت له دار « المكشوف » بلبنان اخيراً مجموعة صغيرة من القصص تحت عنوان « حورية البحر » وضمت الناشئة كما تخرج له قريباً مجموعة أخرى تحت عنوان « رجل رهيب » وقد أعلن هو عن مجموعة أخرى اسمها « قال الراوي » وهي في هذا الغرض السامي وانها لخدمة جليلة

٢ — أرواح شاردة

عالم الاستاذ علي محمود طه — ٩٦ صفحة من قطع المقتطف — مطبع شركة فن الطباعة بمصر

لقد كُتب على الملاح التائه أن يظلّ خفّاق الشراع جوّاب الآفاق يطوي طلاً ليطلّ على طلّ ، وكأن جنيّات البحر لا يردن ردّهُ الى شاطىء ما حتى لا تستأثر به عروس من عرائس الأرض فهذه رحلة جديدة له ، رحلة بين أرواح ثارت على قيد الصمت العميق بعد أن وعيها الخلود عرشه ، وأطلعها على أسراره فظلت تطوف بهذا العالم كما يطوف الحلم الجميل بين النائم الخلي

ولقد ضمت هذه المجموعة دراسات في الأدب الفرنسي تناولت جانبين من أعلامه هما

« بول فيرلين » و« شارل بودلير » تناول شاعر لحياة شاعرين ؛ ومن أدرى بحياة الشاعر من الشاعر ؟ وهاتان الدراستان من امتع فصول الكتاب ، والى جانبهما دراسة من رسائل الكاتبة « ريكا وست » فيها عرض جميل للأدب الانجليزي الحديث

وبعد هذه الدراسات نفحات قدسية ترجمها الشاعر من شتى ألوان الأدب فهذه فتره شيلي ينقلها شاعرنا الى العربية نقلاً غير عجتزىء على معاني الشاعر وأفكاره وسياقه الشعري بشيء من الحذف بل مضيفاً ما يقتضيه اظهار المضمر من المعنى وتبسيط المركب من الخيال مراعياً في التعبير عن الاصل الانجليزي ما توحي به مقتضيات البيان الشعري العربي موفقاً ما أمكن بين الاثنين . وهذه قصيدة «الشاعر وكتابه» للشاعرة الاميركية « إدناسانت فنسنت ميلاي» نقلها نثراً في أسلوب رائع ، وهذه « عودة اللاّح » لجون ماسفيلد ، وهذه « اغنية القطيع» لروبرت سيتول — وقد نشرت هذه القصائد الاربع في اعداد سابقة من المقتطف — فبيت الراعي لالفرد دي فيني ، وقد نقلها الشاعر الى الشعر العربي نقلاً جديداً ناسخاً به الترجمة التي سبق أن نشرها لها منذ أعوام . أما روائع الكتاب فهذه الفصول التي عقدها المؤلف عن ذكرياته في مطارح الغربة ومنازح القلوب ومسارح الفن والجمال عند ما طوّف في الغرب قبل ان تتلاشى حياته وتتقوض جناته وتعصف أعاصير الحرب وويلاتها بسحره ومفاتنه

وفي الحق أن هذه الذكريات صور من الأدب العالي وقصص لروح شاعرة شاردة عادت الى وكرها تهتف بما ملئت من سحر وفتنة صاغها الشاعر في أجمل صور التثر فكأنما هي هدية اليه

فتى تعود الى الغرب مباهجه حتى يعود اللاّح الى تيهه ويؤوب الينا بذكرياته ، متى ! فلتعش يا اخي على هذه الذكريات العذاب ، ولتضع عمرك بينها حتى لا تهتف بعد ذلك بأنك ضيعت عمرك في الاوهام ، فما ضاع منك شيء ولك من هذه الذكريات حيوات وفيها شباب متجدد الحياة

٣ — ويك عنتر !

مزلية في ثلاثة فصول تأليف الاستاذ عادل كامل الحامي — ١٦٥ صفحة من القطع الوسط — مطبعة الحامي بمصر

الاستاذ عادل كامل قصصي موهوب تلمس في أولى آثاره القصصية التي أخرجها وهي هذه الرواية ، اشعاع هذه الموهبة ، وهو يكتب بفكره فتحس أثر ذلك في حواره وفيما يضفيه على جوّ المسرحية من ألوان

ولذا كانت هذه المسرحية بما فيها من جهد وما فيها من تفكير ومعالجة لمشكلة من أدق مشكلاتنا الاجتماعية وتصوير المرأة التي تلزمها ظروف قاسية على أن تعمل ما لا ترضى به في سبيل ضمان الحصول لنفسها على أزواج بجانب أن تحصل لنفسها على « رجل » يمثل معها الدور الذي يضمن لبيدها فض أوراقها من الوقف فتكون وظيفته في الدار هي هذه الوظيفة فحسب كما يعالج

صوراً للشباب الذي فقد معاني « الرجولة » من قوة وروعها الأجيال السابقة فما استطاع ان يصطنع لنفسه في عصره المنحط قوة كشباب العصر الخالية : قوة لا تفقدها المدنية شيئاً من معنى الرجولة والكرم ....

اذا كانت هذه المسرحية تافهة من هذا العرض الجميل والفكرة القوية هي أولى آثار المؤلف فما أجدره بالتقدير والتشجيع ، فهو لا ينقصه من العناصر الأساسية في التأليف المسرحي شيء على أن لنا مأخذاً على هذه الرواية هو ان المؤلف أضفى على شخصياته من الالوان ما اخرجها في بعض مظاهرها عن طبيعتها في الحياة حتى ليكاد القارىء يستبعد وجود هذه الشخصيات ويجعلها أقرب الى أن تكون صوراً مجسمة يحركها المخرج على المسرح اكثر مما تحركها الحياة . كما ان هناك بعض هنات في قواعد اللغة نرجو أن يتداركها المؤلف في الطبعة الجديدة

وانا لننتظر من الاستاذ عادل ان يتبع أثره الاول بغيره فله في مستقبل الفن المسرحي مكانة جديرة بالاعجاب

حسن كامل الصيرفي

الثقافة الجنسية والامراض السرية

تأليف الدكتور حنا حنا — صفحاتها ٢١٠ صفحة من القطع الوسط

من ألزم الواجبات أن يعرف كل إنسان ما يمس التربية الجنسية ليأمن الغرر ويتعرف الى الخطأ في تربية النساء ومسالك الخطر في تكوين المجتمع . فمن أجل هذا تلقى المحاضرات ومن أجل هذا يعظ الواعظون ويكتب الاخلاقيون . ولكن لابد ان تكون أمام الانسان دروس ثابتة في كتاب يقرأها كل يوم فيملأ نفسه ويضع امام عينيه طريق التربية الحقة صوناً للاجسام والعقول فما أخطر على الامم من النقص في ناحية التربية الجنسية

ولقد اضطلع بعبء هذه المهمة الدكتور حنا حنا حكيماني مكتب البغاء سابقاً . والاخصائي في الامراض الزهرية والجلدية فأخرج لنا كتاباً في الثقافة الجنسية ألمّ في فصوله الاربعة عشرة بكل ما يتصل بهذه الثقافة من ابحاث علمية وأمثلة حية من التاريخ القديم والحديث فجاء كتابه خلاصة لتجارب طبيب مضى عليه ثلاثون عاماً وهو متصل اتصالاً وثيقاً بهذه الناحية واقفاً على ما يعتري شباب الامة من الصعوبات في سبيل حفظ أجسامهم بعيدة عن الدنس وحفظ عقولهم بعيدة عن عقائد فاسدة ونظريات لا أساس لها . فجاء الكتاب متضمناً خلاصة البحوث الجديدة في التربية وعلم النفس والطب وكل ما يتصل بالثقافة الجنسية والمؤلف الباحث طريقة جذابة في شرح فكرته واداء الامثلة عليها وسوقها للقارىء بحيث لا يحس ملالاً ولا سأماً مما له أكبر الاثر في التهام ما في كتابه من ثقافة واجبة التعرف واجبة الحفظ . وهو كتاب جدير بأن يقال انهُ من خيرة ما وضع في هذه الناحية في المكتبة العربية

﴿ كتب صدرت عن الأقطار الشرقية ﴾

خارج القطر المصري في العشر السنوات الاخيرة وتناولها « المقتطف » ببحثه

١٩٣١

معجم البستان
وثيقة الدردار وقضية العراق
حظيات لقمان
لا جديد في الجبهة الغربية
امكان التهذيب
على بساط الريح
التطبيب بالصوم
الفكرة الزراعية
مجلة الناشئة
الحصاد الاول
الماطر

آلهة الأرض
كتاب الدواجن
مجلة الإصلاح
صحة الفم والاسنان
حقائق ودقائق
أصول علم الفلك الحديث
رسالة اللبة
المخيام
الآداب العربية وتاريخها
الدليل الثاني
عبدة الشيطان في العراق

الليون في التاريخ
الانتدابات في العراق وسورية
المشرفيات
الحياة الزراعية
الزراعة الحديثة
فتح العرب لشام
ذكرى فوزي المعلوف
مقامات الصهيونية
المجلد الثامن من الاكليل
الرسالة الثانية

١٩٣٢

سيد قريش
امراء الشعر العربي في العصر العباسي
الخطرات
تفسير الالفاظ الدخيلة

ذكرى الامير فؤاد ارسلان
ديوان الرصافي
الجاحظ
فتح الاندلس

كتاب العراق
ميزان الاكوان ودولاب الزمان
الصاحب بن عباد
جماعة اخوان الصفا

١٩٣٣

غرازيلا
سوريا في فجر التاريخ
ابو نواس
ديوان فرحات
علم الاقتصاد
الراحل
علم الطبيعة
الظما
الامواج
مريض الوهم
كتاب الرثاء
ملاح الدين وشوق
كتاب الشخصية
امير الشعراء شوقي
القرية عند العرب
الكوخ الهندي

بول وفرجيني
اهم آثار دمشق
فن الصحة
شرح التكميل لجامعة التنزيل
كتاب الفلاحة لابن العوام
عنوان الاريب
شاهنامة نوبخت
رحلة الى اشتر بن النجر والمكلا
القراءة المفيدة
تلخيص كتاب المقولات لابن رشد
حاضر العالم الاسلامي
ذكرى الشاعرين — ذكرى الدكتور محمد بن ابي شنب
ه حيوان حياً وميتاً
العروبة في الميزان — محاضرات في التربية والتعليم على طريق

الهند — مقالات في التربية والتعليم
ابن عبد ربه وعقده
رحلة الى بلاد المجد المفقود
الاعاصير — آلاء الرحمن في تفسير القرآن
علم طبقات الارض
مفكرة النص أسعد منصور
سلم اللسان في الصرف والنحو والبيان
جغرافية سوريا
جنفيان — انظمة التعليم
البخيل — سيرة حياتي
زفرات القلوب — أنغام الشعراء
آداب الطب وحياة الطبيب
صناجة الرياشي

١٩٣٤

الادوار العربية لتاريخ سورية
ابن عبد محمد علي
من الصحة : الجزء الثاني
حيات في الغرب
الحكيم وسلمى
مختار البيان والتبيين للجاحظ
محاولات في درس جبران
تاريخ الوزارات العراقية
فصل الاول
تاريخ نابليون بونابرت
الجغرافية العامة الحديثة
الجغرافية الطبيعية

قمرس لبنان
مؤجز الاغاني العراقية
تاريخ الصحافة العربية (الجزء الرابع)
الشرق والغرب
استشارات الطبيب المهندس
أركان التدريس
رحلة الى العراق
مصطفى كمال أو المثل الاعلى
ابن سعود
تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني
الروائع
الاسلاح

الارزونة
في سبيل الحرية
مثلنا الاعلى
العذراء العربية أو اريب بنت اسحق
دلال
الحوضة القمرية
مجلة الدهور
أثر قديم في العراق
الاسلام والحضارة العربية
علم الطبيعة
علم قياس المثلثات

١٩٣٥

الاسلام والحضارة العربية
محنة السرطان
جبران خليل جبران
أعلام القرن العشرين الاقدمين
على عتبة الاربعين
فن الجراثيم
جولة أدبية

تاريخ الصحافة العراقية
الادب العربي في آثار أعلامه
من حي الى ميت
مفتاح العقول
تاريخ شرق الاردن وقبائلها
نبات سوريا وفلسطين
شهر في أوربا

علم الامراض الباطنية
المعلم الجديد
عمر ابن ابي ربيعة
الاسلام الصحيح
المدرسة المستعمرية
الزراعة العامة الحديثة
يوميل مجلة العرفان

١٩٣٦

لبنان في عهد الامراء الشهابيين
تطور الاساليب النثرية في الادب العربي
العراق في دوري الاحتلال والانتداب
قصص وأساطير وعادات شعبية لبنانية
الجزيرة للدينة والمملكة العربية
تاريخ غزوات العرب
ميناء البصرة
نفسية الرسول العربي
الاوتار المتحطمة

عمدة الاديب اسرة النبيه
علم تكوين الجنين
تنظيم سوريا الاقتصادي
الادب العربي في آثار أعلامه
أسباب الحالة المصرية
شوقي على المسرح
الكيمياء العامة
ضجعة المرت أو بين أحضان الابدية
الحديث في قواعد اللغة العربية
محمد والقرآن
محاضرات في التربية والتعليم

شعراء الدسور
حوض البحر المتوسط
الجيتة
عبقر
اعيان الشيعة
رحلة الى الهند
ديوان الامير شكيب ارسلان
علم الامراض الباطنية
تاريخ ابن الفرات
النظام الاقتصادي في سوريا ولبنان

١٩٣٧

ديناميكا الهواء	سوريا	الحكيم وقيل
الامراض الجرثومية	عشر قصص	طرق التدريس المثلى
شوقي أو صداقة اربعين سنة	العمي الاعرج وقصص أخرى	التربية على طريقة دالتن
سور من أحياة في حبس انفرادي	الفارابي	علم الامراض الباطنة الجزء الثالث

١٩٣٨

القضية الفلسطينية	الحلل السندسية	أرجوحة القمر
عشائر العراق	المعجمية العربية على ضوء الثنائية والالسنية السامية	سهم
الشرق في الآداب الفرنسية بعد الحرب	السيد رشيد رضا أو أربعون سنة	عمر افندي
مقاييس الكفاءة للاستقلال	كان ما كان	قيس الصوف
تاريخ ابن الفرات — المجلد التاسع — الجزء الثاني	الجدلية	أقاصي الفردوس
		ابن سينا الفيلسوف

١٩٣٩

واشنطن	تفسير سابعد الطبيعة	الازليان
ديوان ابن الساعاتي جزء أول	الرغيف	نخب الذخائر في أسرار الجواهر
مقابر الفجر	وهل يخنق القمر	ملخص الكيمياء
صور الجيش العراقي	كتاب الموسيقى الشرقية والغناء العربي	النواميس
دريفوس	مقدمة في الاجتماع	لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم
تل السنديانة	مجموعة نادي القلم العراقي	سيف الدولة وعصر الحمدانيين
سنفة الارز		

١٩٤٠

فلسفة الطب	النسد العم وتأثيرها في شخصياتنا	ديوان ابن الساعاتي جزء ثاني
النقود العربية وعلم النميات	الكاظمي	تاريخ حمص
قدو يلهو	النظام الاقتصادي في فلسطين	الاهدام
الوعي الثوري	الحلل السندسية في الاخبار والآثار الاندلسية	الادب العربي في ماله وفي ما عليه
عمر ابن ابي ربيعة	سند يعقوب بن شيبة في الحديث النبوي	الفلسفة
العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث	وادي الفريكة	ملوك العرب
سيف الدولة وعصر الحمدانيين		فجلة الحديث والمرجوم اسماعيل ادهم
		ديوان الشبي

وبلغ عددها ٣٤٦ كتاباً

وقد نشر المقتطف في اجزاء متفرقة من سنة ١٩٣٩ فصولاً ممتعة في «الحركة الادبية في سوريا ولبنان» للاديب الناشر الياس أبو شبكة.

فهرس الجزء الرابع

من المجلد التاسع والتسعين

٢١٣ حصاد الصيف
١ — ما يكف المستقبل للانسان
٢ — الضغط الدائي وتأثيره في المادة والاحياء
٣ — النفط والحرب في أوربا
٤ — العرب والعلم

٣٢٩ الآثار العراقية بين الماضي والحاضر : بقلم كوركيس عوّاد

٣٣٨ فن الحياة : للدكتور ابراهيم ناجي

٣٤٤ اقوال تؤثر

٣٤٥ علم النفس : للاستاذ سي ، بي ، فرزبي نقلها الى العربية حسن السلمان

٣٥٣ اثر طاهور في ذهن كاتب انكليزي بعد مقابلته

٣٥٦ فوائد الرياضة البدنية في الصحة : للدكتور شوكت موفق الشطي

٣٦١ معركة الاصلاح الاجتماعي : لمحمد العشماوي بك

٣٦٩ خاطر الحياة في غواصة في أثناء الحرب

٣٧٣ الجنديان (قصة مصرية) : بقلم محمود تيمور بك

٣٨٠ ما أسداه الدكتور جون بول الى المساحة المصرية : للدكتور احمد موسى

٣٨٥ حديقة المقتطف * بختارات من (ميّ) رحمة الله عليها ١ — عند قدمي ابي الهول
٢ — عائشة عصمت تيمور ٣ — كولمبوس ٤ — شرر وحبب

٣٩٥ سير الزمان * الحرب في سنتين . النظام الجديد في اوربا من الوجهة الاقتصادية

٤٠٦ باب المراسلة والمناظرة * يهودية اشينجر : السيد ابو النصر احمد الحسيني الهندي

٤٠٩ باب الاخبار العلمية * العلم والحرب وما بعد الحرب . حرية علمائنا سلاح . السياسة خادمة العلم القضاء على الجوع والسيف . طرف من أقوال المحاضرين . دستور العلم والعلماء . المرء يسدون خدمة الى الاحياء

٤١٧ مكتبة المقتطف * الصعلوك ، أبو شوشة ، الموكب . ارواح شاردة . ويك عنتر . التغاية الجنسية والامراض . كتب صدرت عن الاقطار الشرقية خارج القطر المصري .